

من التراث الغنـي الـاسـبـاني نماذج لـاهم المصـادر الـعـربـية والـحـولـيات الـاسـبـانية الـتـي تـأثرـتـبـهـا

تفتقـر المـكتـبة الـعـربـية إلـى كـتـاب شـامـل يـتـناول درـاسـة مـصـادر التـارـيخ الـاسـلامـي فـي الـمـغـرب وـالـانـدـلس Historiography . وـهـذا الـعـمل فـي الـوـاقـع يـعـتـاج إلـى جـهـود لـجـنة منـ المؤـرـخـين الـعـربـ المـتـخصـصـين فـي هـذـا الـمـيدـان ، تـعـكـف عـلـى درـاسـة هـذـه الـاـصـولـ التـارـيخـية سـوـاء كـانـت مـصـادر عـربـية أوـ حـولـيات اـسـبـانية .

وـحسـبـي فـي هـذـه الـدـرـاسـة أـعـرض عـلـى القرـاء نـمـاذـج مـن هـذـا التـارـيخـي الضـخم ، الـذـي خـلـفـه لـنـا الـعـلـمـاء الـانـدـلـسيـون وـالـفـارـقـة وـالـاسـبـانـ، متـوـخـيا فـي ذـلـك التـرـيـبـ الزـمنـي وـالـتـسـلـسلـ التـارـيخـي لـهـذـه الـاـصـولـ .

وـقـد قـسـمـت الـوـضـوع إلـى قـسـمـين :

الـقـسـمـ الـأـوـلـ : يـتـضـمـنـ الـمـصـادرـ الـعـربـيةـ الـانـدـلسـيـةـ وـالـمـغـربـيـةـ .
وـالـقـسـمـ الـثـانـيـ : يـتـناـولـ الـحـولـياتـ الـاسـبـانـيـةـ الـتـيـ تـأـثـرـتـ بـالـمـصـادرـ الـعـربـيةـ .

• • •

أولاً : المصادر العربية الاندلسية والمغربية

الفترة الأولى من تاريخ الأندلس ، ففتررة مفطرية غافضة ، لأن مصادرها لم تدون في إسبانيا مسرح الحوادث والعمليات الحربية . فالمسلمون الذين كانوا في إسبانيا في تلك الفترة الأولى ، كانوا جنوداً محاربين لهم إلا القتال والجهاد وجمع الشئام . أما الكتاب المؤرخون ، فقد كانوا في الشرق حيث القيادة العليا ، ولا سيما مصر التي كانت بحكم وضعها الجغرافي القاعدة العسكرية الكبرى لجميع العمليات الحربية في المغرب والأندلس : تمر جيوش الفزو منها ، كما يمر بها الجنود العائدون إلى أوطانهم . ومن ثم أصبحت مصر مركزاً لما كان يكتب من أخبار عن المغرب والأندلس .

والجدير بالذكر أن اهتمام المصريين بالأندلس ، بدأ قبل أن يغزو المسلمون هذه البلاد . فأول ذكر للأندلس بين المغاربة ، هو ما كتبه عنها بعض العلماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام ، وملأوا كتب التاريخ الإسلامي بأخبار مستمدة من مصادر الثقافة اليهودية القديمة مما اصطلاح على تسميتها بالاسرائيليات ، كالاحاديث المنسوبة إلى كعب الاخبار ، ووهب بن منبه ، وهي احاديث احتفظت بها كتب التاريخ المصري ، وتناقلها المؤرخون المصريون من قديم ، وإن كان لا يستبعد أن يكون الكثير منها موضوعاً . إلا أنه من الثابت أن المحدثين المصريين تأثروا بها إلى حد كبير . مثال ذلك بعض الاخبار الخاصة بالأندلس التي تروى عن الصحابي المصري المعروف عبد الله بن عمرو بن العاص الذي توفي سنة ٦٥ هـ ، اي قبل فتح الأندلس بنحو ربع قرن .

ثم تأتي بعد ذلك طبقة التابعين الذين دخلوا الأندلس ، وشاركوا في غزوها أمثال موسى بن نصیر ، وعلي بن رياح ، وحنش الصنماني وغيرهم . ويلاحظ أن عدداً كبيراً من التابعين عاشوا في مصر ، ودرسوها فيها على يد الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص ، ولقد عاد معظم هؤلاء التابعين إلى مصر بعد انتهاء فتح الأندلس . وكان من الطبيعي أن يقصوا على تلاميذهم قصة الفتح ، وما شهدوه في الأندلس من عجائب . ولم تثبت هذه الاخبار السمعية أن أخذت تتناقل في المجالس الأدبية والدينية في مصر وانتقل بها الفقهاء والمحدثون المصريون أمثال الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) وعبد الله بن لميعة (ت ١٧٤ هـ) .

إلا أنه يلاحظ أن كل هذه الروايات بحكم كونها سمعية كان ينقصها الدقة ، وتسودها المبالغة والأساطير ، ولكنها على كل حال تدل على أن المصريين كانوا أول من وضع أساس التاريخ الأندلسي (١) .

(١) انظر
Mahmud Makki : Egipto Y La Historiografia Arabiyo Espanola)
Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid Vol. V Madrid 1957.

(١) مؤرخو القرن الثالث الهجري (٣٩):

وأول كتاب عربي وصل إلينا عن تاريخ المغرب والأندلس، كتبه المؤرخ المصري عبد الرحمن ابن عبد الحكم وعنوان كتابه : « فتوح مصر والمغرب والأندلس » .

عاش ابن عبد الحكم في الفسطاط في القرن الثالث الهجري ، فهو معاصر للطبرى والبلذدرى، وقد اختص أسرته بدراسة الفقه والحديث ، وتزوج منها الإمام الشافعى ودفن في مقابرها وقد درس على ابن عبد الحكم عدد كبير من المغاربة والأندلسيين ، وكتابه يعتبر من أحسن ما كتب في فتوح المغرب والأندلس وأيدها عين الأساطير . لهذا التشر في الأنجلو وآخذ منه كثير من المؤرخين الاندلسيين المتأخرین أمثال ابن الفرضي في كتابه « تاريخ علماء الأنجلو » ، وابن خير في فهرسته ، والصحابي في « جلدة المقتبس » وغيرهم .

وقد اهتم المستشرقون بنشر هذا الكتاب مثل تشارلز تورى Charles Torrey الاستاذ بجامعة ييل بولاية نيو هافن New Haven بأمريكا . ومثل المستشرق الفرنسي البرت جانو A. Gateau الذى اقتصر على نشر الجزء الخاص بفتح المغرب والأندلس فقط مع ترجمة فرنسية له بعنوان Gateau : Conquête de l' Afrique du nord et de l' Espagne ومثل المستشرق الفرنسي هنرى ماسى Henri Massé الذى نشر الجزء الخاص بمصر فقط في مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية ، في جراین . وكذلك نشر الكتاب حديثاً استلاماً مصرى هو عبد المنعم عامر ، كما كتب الدكتور إبراهيم أحمد العدوى دراسة عن الكتاب ومؤلفه بعنوان: ابن عبد الحكم ، رائد المؤرخين العرب (مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٦٣) . أما أقدم كتاب كتبه الاندلسيون أنفسهم عن تاريخ بلادهم ، فهو :

كتاب مبتدأ خلق الدنيا المعروف بتاريخ عبد الله بن حبيب الالبيرى . هذا المؤرخ عاش في مصر ، ودرس على علمائها ، ثم عاد إلى بلاده حيث اشتغل معلماً بمسجد قرطبة ، ولهذا جاء كتابه مصرياً في روایته ومصادره مما يجعلنا ندرجها في عداد الكتب المصرية . وتوفي ابن حبيب سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢م) . والقسم الاندلسي من الكتاب يتناول أحداث فتح الأنجلو ومن دخلها من التابعين ، وقد نشره الدكتور محمود علي مكي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧ ، حسب النسخة الوحيدة المخطوطة التي توجد الآن في مكتبة البوڈليانا باكسفورد رقم ١٢٧ .

واستمرت كتابة التاريخ الاندلسي في يد المصريين حتى القرن الرابع الهجرى (٤٠م) ، ثم اخذ بعد ذلك يد المصريين في كتابة هذا التاريخ بضعف ويتضائل .

والسبب في ذلك يرجع إلى أن الثقافة الاندلسية في ذلك الوقت كانت قد نمت وأزدهرت واستقلت بشخصيتها الاندلسية عن المشرق تقافياً وسياسياً أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر وحفيده هشام المؤيد . فتحول الاندلسيون أنفسهم كتابة تاريخ بلادهم .

(ب) مؤرخو القرن الرابع الهجري (١٤٠)

من أهم الكتب الاندلسية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري (١٤٠م) ، أيام ازدهار الخلافة الاموية بالأندلس ، نذكر : -

١ - كتاب تاريخ افتتاح الاندلس ، لابي بكر محمد القرطبي المعروف بابن القوطية : واضح من اسم المؤلف انه كان من سلالة امراة قوطية او اسبانية ، وهى الاميرة سارة حفيدة ملك اسبانيا غيطة Witiza القرطبي . وقد تزوجها ميسى بن مراح ، مولى هشام بن عبد الملك ، عندما ذهبت الى دمشق لبحث ميراث ابيها ، ثم ادت معه الى اسبانيا ، ومن سلالتها جاء مؤلف هذا الكتاب الذى يعتبر بحكم هذا الرواج المختلط من طبقة المولدين . وقد تأثرت كتابته ب تلك النزعة الوطنية الاسانية ، فنراه يمدح الامير القرطبي ارجطاس بن غيطة ويصفه بالسياسة والعلم ، بينما يهاجم القائد العربي الصميم بن حاتم ، ويصفه بالجهل والامية ، ويسوق في ذلك قصة العلم الذى كان يقرأ على الصبيان الآية : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ففاظعه الصميم بان الآية تقول : « وتلك الأيام نداولها بين العرب » !! وبعد ان افتتح الصميم بخطا رايته ، صاح قائلاً : « سبحانك ربى أن تحمل الحكم في أراذل الناس دون العرب » !!

فترجمة ابن القوطية في هذا الكتاب تلاحظ فيها تعصبا ضد الانسان العربي وضد السيادة العربية ، ولهذا يمكن ان نعتبرها النواة الأولى لحركة الشعوبية في اسبانيا ، وان كانت هذه الحركة لم تظهر بوضوح الا في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري (١١١م) على يد ابن غرسية الشعوبى في رسالته المعروفة التي يهجو فيها العرب (٢) .

والمعروف أن الشعوبية لم تهاجم الاسلام كدين ، وإنما هاجمت السيادة العربية على البلاد ، فابن القوطية كان مسلما ومتعمقا للإسلام ، وضليعا في العلوم الفقهية واللغوية ، ولله كتاب آخر في التحرى يعرف بكتاب الافعال ، إنما لم يعنده هذا من أن يظهر سخطه على العرب الذين سيطروا على مراافق البلاد وحرموا منها طبقة المولدين التي ينتمي اليها .

وكتاب تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية، يتناول الاحداث التاريخية التي مر بها الاندلس منذ الفتح العربي حتى وفاة الامير عبد الله الاموي سنة ٣٠٠هـ . ويفهم من سياق الاحداث ان الذي دون الكتاب هو أحد تلاميذه ، اذ ترد دائما عبارات: قال شيخنا أبو بكر أو قال ابن القوطية . وقد يؤيد ذلك أيضا أن المؤرخ القرطبي ابن الفرضي ، وهو من تلاميذ ابن القوطية ، لم يذكر هذا الكتاب في معجمه تاريخ علماء الاندلس ، مع أنه ذكر مؤلفاته الأخرى مثل كتاب تصاريف الاعمال ، وكتاب المقصور والمعدود (٢) وغير ذلك ، مما يدل على أن تاريخ ابن القوطية جمعه أحد تلاميذه بعد وفاته (٣٦٧هـ) بمدة من الزمان .

(٢) راجع (احمد مختار العبادي : الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (ملرید ١٩٥٣) .

(٣) ابن الفرضي : كتاب تاريخ علماء الاندلس ، ترجمة رقم ١٤١٦ .

والكتاب نشره العالم الاسباني ياسكوال دي جاينجوس P. De Gayangos وترجمته الى الاسپانية المستشرف الاسپاني خوان ريبيرا J. Ribera (مدريد ١٩٢٦) .

٢ - كتاب أخبار مجموّعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها ، مؤلف مجهول :

يبدأ بحروب العرب في بلاد المغرب والأندلس على عهد موسى بن نصیر ، وقصة يولييان حاكم سبتة وعلاقة ابنته بملك القوط رودريgo ، ويستمر في تاريخ احداث هذه الفترة الاسلامية الاولى ، وينتهي بوفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر ، سنة ٤٥٠ هـ (١٩٦١) .

ويعتبر هذا الكتاب مصدراً أساسياً في تاريخ تلك الفترة الاولى ، إذ أن مؤلفه قد تبع أخباره من جميع مصادرها السمعية والكتابية ، وتوخي الدقة فيها بشكل جعل لرواياته قيمة تاريخية كبيرة . الا اننا نلاحظ ان الكتاب يتعصب للعرب ولسيادة العربية مما يدل على أن مؤلفه عربي صميم ، على عكس تاريخ ابن القوطية الذي يمثل وجهة نظر العناصر غير العربية من الاسپان المسلمين .

وقد نشر كتاب أخبار مجموّعة المستشرف الاسپاني لا فونتى الكنترا Lafuente Alcantara .

اما عن تاريخ تأليف هذا الكتاب فمختلف فيه ، قال بعض يجعله في القرن الرابع المجري ، والبعض الآخر يجعله في القرن الخامس المجري ، واستند كلا الفريقين على عبارة وردت في الكتاب وتعلق بسياسة الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ) وهي سياسة اقفال او عودة الجيوش الاسلامية من اطراف الدولة ، مثل الهند وتركستان والدولة البيزنطية واسپانيا . فقد كان هذا الخليفة يرى استبدال سياسة العنف بسياسة الدعوة الاسلامية للإسلام ، وایقاف جميع العمليات الحربية في اطراف الدولة وعوده الجيوش من هذه الجهات ، ولكنه مات قبل ان يتحقق مشروعه . فصاحب أخبار مجموّعة يعلق على هذه السياسة العبرية بقوله :

« وكان رأيه انتقال أهلها منها (اي اسپانيا) وليت الله كان أبقاء حتى يفعل ، فان مصيرهم (اي المسلمين) الى بوار ، الا ان يرحمهم الله » . (٤)

هذا النص هو الذي اعتمد عليه المؤرخون في تحديد القرن الذي ألف فيه هذا الكتاب : فالمستشرق الهولندي رينهارت دوزي R. Dozy (ت ١٨٨٤) ، يرى ان الفترة السنية التي مرت بالمسلمين في الاندلس ، هي فترة ملوك الطوائف التي تفككت فيها الدولة بعد سقوط الخلافة الاموية بالأندلس . وعلى هذا الاساس افترض ان كتاب أخبار مجموّعة ألف في القرن الخامس المجري او الحادى عشر الميلادي (٥) .

(٤) راجع كتاب أخبار مجموّعة ص ٤٤ .

(٥) راجع الدراسة التي كتبها دوزي عن المصادر الاندلسية في مقدمة كتاب البيان المقرب لابن عدادي ج ١ ص ١٠ .

اما المستشرق الاسپاني خوليان ريبيرا (ت ١٩٣٣) ، فيرى أن فترة الحروب الداخلية التي سادت الاندلس مقبلاً وفاة الامير عبد الرحمن الثاني (٨٥٢هـ/٩٣٨م) واستمرت حتى بداية عهد عبد الرحمن الثالث (٩١٢هـ/٢٠٠م) ، وهي تقدر ب نحو سنتين سنة ، قد تنتج عنها صهر جميع المناصر الاندلسيّة في امة واحدة تحكم بيد ابناها جمِيعاً ، بحيث لم يُعد للرأي استقرائيَّة العربية تلك المكانة المرموقة التي كانت لها من قبل . ولما كان صاحب كتاب أخبار مجموعة ، عربياً قريشياً صحيحاً ، كما هو واضح من كتابته ، فان حالة المسلمين في نظره هو كانت سيئة في ذلك الوقت بعد ان فقد الجنس العربي لغوفذه التقديم . وعلى هذا الاساس افترض المستشرق الاسپاني ريبيرا ان تأليف هذا الكتاب حدث في القرن الرابع الهجري في مصر عبد الرحمن الثالث (الناصر) .

كذلك لاحظ دليلاً من أسلوب الكتاب أن القسم الأول منه يهتم بالأمور الحربية ، بينما يهتم القسم الثاني منه بالأمور الدينية ، الامر الذي جعله يفترض ان الكتاب تضافر على كتاباته بعض رجال السياسة والدين ، فهي اخبار مجموعة سجلها اناس مختلفون ثقافة وفكرة . (١) وكيفما كان الامر ، فان كتاب اخبار مجموعة يعتبر مرجحاً أساسياً في تاريخ الاندلس .

٣- كتاب وصف الاندلس لاحمد بن محمد اثير ازى و معرف بابن القميط الكاتب :

كما يلقب ايضاً بالتاريخي لكترة الشفالة بالتاريخ والتأليف فيه ، وهو ينتهي الى اسرة
انجيت ثلاثة من المؤرخين كان هو احدهم واسمهم ، اما الاول فهو ابو محمد بن موسى
الرازي ، وهو من اصل من مدينة الرى ، وقد وُلد على الاندلس في سنة ٢٤٩ هـ (٨٦٤ م)
واستقر في مدينة قرطبة ، واستغل اول الامر بتجارة المقاقين والحلبي ، ثم تفرغ للعلم ، وله
مؤلفات في تاريخ الاندلس لم يبق منها الا قطع متباشرة من « كتاب الرأي » نجد هنا في ثناياها
الكتب ، وكان كتاب الرأي يدور حول دخول موسى الاندلس ، ومن كان معه من بطون قريش
وغيرها من قبائل العرب ، وكانت لكل منها رأية تختلف حولها . (٧)

ثم خلفه ابنه احمد بن محمد الرازي (٢٧٤ - ٨٨٨ هـ = ٩٥٥ م) وكان مؤرخاً وادبياً وشاعراً ، وله مؤلفات تاريخية عديدة لم يصل اليها منها الا قطعة في صفة الاندلس ، تصور خططها وملتها وحصونها وأقسامها الادارية وصل كل قسم بالآخر من الناحية الجغرافية . وهذه القطعة مفقودة للاسف ، ولكن لحسن الحظ انه اترجمت الى اللغة البرتغالية في القرن السابع المجري (١٣ م) بواسطة أحد القساوسة البرتغالي اسمه جيل بيرث Gil Perez . وعن هذه الترجمة نقلت الى اللغة الابانية تحت عنوان : *Cronica del moro Rasis* اي تاريخ الرازي . كذلك نقل عن كتاب الرازي كثير من المؤرخين الاندلسيين المتأخرين مثل ابن غالب الفرناطي في كتابه « فرحة الانفس في تاريخ الاندلس » . (٨)

Julian Ribera : Disertaciones y Opusclos I p. 439 (Madrid 1928) مراجع :

(٧) حنثار بالشيا : تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٦٦ ، رقم ٣٠ المكتبة الوطنية

^{٨)} نشر وتحقيق الدكتور طلفي عبد البديع في مجلة معهد الخطوط للحامية الغربية سنة ١٩٥٥.

من التراث العربي الاسباني

اما ثالث المؤرخين من آل الرازى فهو عيسى بن احمد ، وهو حفيد الاول وابن الثاني ، ومن مؤلفاته تاريخ عام للأندلس حتى نهاية عصر الخليفة الحكم المستنصر . وهذا الكتاب مفقود للأسف ، انما اعتمد عليه المؤرخون الذين جاءوا بعده امثال ابن حيان ، وابن عذارى ، وابن الخطيب ، فحفظوا لنا الكثير من هذا التراث الضائع .

٤ - مختصر تاريخ الطبرى للمؤرخ والطبيب القرطبي عريب بن سعد (ت سنة ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م)

قد يبدو من عنوان هذا الكتاب انه مجرد اختصار لتاريخ الطبرى في حين انه في الواقع ذيل على تاريخ الطبرى ولا سيما في احداث المغرب والأندلس التي هي من تأليف عريب بن سعد ، اذ ان الطبرى لم يهتم الا بتاريخ المشرق بصفة خاصة . وقد نشر دى خويه De Goeje الجزء الخاص بتاريخ المشرق من كتاب عريب .^(١)

اما الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس، فلا نعلم عنه سوى ما قاله دوزى من ان ابن عذارى قد نقل قطعا منه في الجزء الثاني من كتابه البيان المغرب .^(٢) ومن الروايات التي نقلها ابن عذارى للاحظ ان عريب بن سعد انفرد بروايات تاريخية هامة مثل قوله في فتح الاندلس، ان موسى بن نصیر نهض بنفسه الى لقاء الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك بدمشق ، واستشاره في فتح الاندلس، فأشار عليه الخليفة بان يختبرها بالسرايا ولا يغدر بالمسلمين^(٣) . وهذه الرواية تختلف عن بقية الروايات التي تجمع على ان الاتصال بينهما تم بطريق المراسلة .

هذا ، وكان عريب بن سعد طيبا للحكم المستنصر ، الى جانب كونه كاتبا ومؤرخا . وقد كتب كتابا في امراض النساء ، وكتابا آخر سماه تقويم قرطبة ، وهو تقويم حسابي فلكي يتناول علاقة الشمس بالمحاصيل الزراعية في فصول السنة المختلفة . وقد نشره دوزى كملحق لكتاب البيان المغرب لابن عذارى تحت عنوان : تقويم قرطبة لسنة ٩٦١ .^(٤) Le Calendrier de Cordoue de l'année 961)

٥ - كتاب القضاة بقرطبة ، محمد بن حارث الخشنى القرروى (ت ٣٦٠ هـ = ٩٧١ م) :

عاش هذا العالم في مدينة القiron ، ثم انتقل الى الاندلس بدعوة من الخليفة الاموى الحكم المستنصر الذى طلب منه تأليف هذا الكتاب ، وأباح له الاستفادة من مكتبة القصر الملكي التى كانت عامرة بالكتب والمصادر المختلفة .

(١) راجع (عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ، نشر دى خويه ، ليدن ١٨٩٧) .

(٢) عندما نشر دوزى كتاب البيان المغرب لابن عذارى ، كتب في الملحقة الاولى ما ياتى : «الجزء الاول ، واختلطت به قطع من نظم الجمان لابن القطنان ، والجزء الثانى واختلطت به قطع من تاريخ عريب بن سعد .

(٣) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦) .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لا يعتبر كتاباً تاريخياً يعنى الكلمة ، إلا أنه مهم جداً في معرفة الحياة الاجتماعية في الأندلس في العصر الاموي ، إذ كثيراً ما يشير إلى عادات الأندلسيين ولباسهم ولغتهم ، مثل اشارته الهامة إلى انتشار اللغة الاعجمية أو الرومانسية أو الإسبانية القديمة Romance بين الأندلسيين إلى درجة أن بعض القضاة كانوا يتقنونها ويناقشون التهمين بها أثناء المحاكمة . مثال ذلك قوله : « وكان حيئث بالمدينة شيخ اعجمي اللسان يسمى ينابير ، وكان مقدماً عند القضاة مقبول الشهادة ، مشهوراً في العامة بالخير وحسن المذهب . فارسل فيه الوزراء وسالوه عن القاضي ، فقال بالعجمية : ما أعرفه ، إلا أنى سمعت الناس يقولون أنه إنسان سوء » وصفه باللغة العجمي . فلم يرافق قوله إلى الأمير رحمة الله ، عجب من لفظه ، وقال ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل الصالح الا للصدق ، فعزله عن القضاء » (١٢) . وقوله كذلك : « وذكر لي غير واحد من أهل العلم أن القاضي سليمان بن أسود كانت فيه دعابة ... وحكوا عنه في ذلك حكاية حفظت عنه في مجلس حكمه ، وذلك أنه كان في وقته رجل من العدول يُعرف بابن عمار كان يختلف إلى مجلس القاضي ، وكانت له بفلة هزيلة تلوك لجامها على باب المسجد ، قد انضاحتها الجهد وغيرها الجسوع . فتقدمت إمرأة إلى القاضي وقالت له بالعجمية : يا قاضي انظر لشقيقتك هذه ! فقال لها بالعجمية : لست أنت شقيقتي ، إنما شقيقتي بفلة ابن عمار التي تلوك لجامها على باب المسجد طول النهار !! » (١٣) .

كذلك يعطينا الخشنى في كتابه معلومات قيمة عن نظام القضاء في الأندلس ، ويقارن بينه وبين نظام القضاء في الشرق . فتكبير القضاة في الأندلس كان يسمى بقاضي الجماعة ، ونفوذه كان قاصراً على العاصمة فقط ، فلم يكن لـ سلطان على بقية القضاة في الأقاليم الأندلسية ، فهم مستقلون بأنفسهم وال الخليفة هو الذي يعينهم أو يعزلهم ، ولا يمتاز قاضي الجماعة عنهم إلا من الناحية الأدبية باعتباره قاضي العاصمة ومستشار الخليفة . أما في الشرق ، فتكبير القضاة في مصر أو العراق ، كان يُعرف بقاضي القضاة ، وكان نفوذه أوسع بكثير من قاضي الجماعة في الأندلس ، فهو الذي يعين ويعزل القضاة في جميع الأقاليم ، فهو قاضي الدولة كلها ومن سواه في الولايات .

نشر هذا الكتاب وترجمه إلى الإسبانية المستشرق الإسباني ريبيرا Ribera - مدريد ١٩١٤ .

٦ - تاريخ علماء الأندلس ، للمؤرخ القرطبي أبي الوليد عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضي . (توفي قتيلاً على يد البربر سنة ٤٠٣هـ - ١٠١٢م) في فتنة الأمويين بقرطبة .

ويقع الكتاب في جزأين ، وهو عبارة عن تراجم لعلماء الأندلس حتى عصره ، وهو أقدم معجم رجال عام وصل إلينا ، يذكر فيه أخبارهم وأثارهم وسرهم وبلياتهم وانسابهم ومواليدهم

(١٢) (١٣) : راجع (الخشنى : كتاب القضاة بقرطبة ص ٩٦ ، ١٢٨ - ١٣٩) .

وفيياتهم بصورة مختصرة متقنة . وقد أشار المؤلف إلى أنه كان يتحري الدقة بنفسه في رواياته فيسأل عن هذا التاريخ أو ذاك ، أو يقرأ شاهد قبر ليتحقق بنفسه عن شيء ، بل الله كان يقرر في بعض المواضيع بأنه لم يجد شيئاً ستطيع أن تطمئن إليه . (٤٤)

والكتاب مرتب على حروف المعجم ، وفني بالمادة التاريخية التي لاغنى للباحث عنها . وقد سار على طريقته ومنهاجه عدد من العلماء الذين جاعوا بعده أمثال ابن مهبل وأمين شكوك الـ .

وقد قام على نشره المستشرف الاسپاني فرانشكو كوديرا . (مدريد ١٨٩٢) :

三

(ج) : مؤرخو القرن الخامس الهجري (١١م)

اذا انتقلنا الى القرن الخامس الهجري او الحادى عشر الميلادى ، نجد ايضا نخبة ممتازة من المؤرخين الاندلسيين من ابناء قرطبة امثال ابن حيان وابن حزم ، الذين عاصروا عظمة الدولة الاموية في مقتبل شبابهم ، ثم رأوا تمزقها وسقوطها من خلال فتنة مدمرة دامية . ولا شك ان هذه الاحداث المؤلمة قد الرت في نفسيه هذا الجيل من ابناء قرطبة ، وصيغت تفكيرهم وكتاباتهم بالمرارة والقسوة والأسى ، كما فتحت آذانهم وشحذت هممهم الى تقصي الحقيقة والبحث عن اسباب هذه المحنـة التي أصابـتـ بلدـهم ، وعن وسائل علاجـها . (١٥) ومن ابرز مؤرخي هذه الفترة :-

(١) أبو مروان بن حيان القرطبي (٣٧٧ - ٩٨٧ هـ = ٦٩ - ١٧٦ م)

هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين ، اعظم مؤرخي اسبانيا الاسلامية والمسيحية على السواء في العصر الوسيط ، فهو بمنزلة الطبرى بالشرق . كان والده خلف بن حسين من كبار كتاب المنصور بن أبي عامر وولده عبد الملك المظفر الذي حكم بعده . لهذا كان من الجاه والثروة بحيث عرف كيف يختار لابنه حيان عددا من الأساتذة الكبار ليتلقى عنهم العلم منفردا في داره او في دار استاذة لا كما يلتقاء غيره في الحلقات العامة بالمسجد الجامع بالزاهره .

وهكذا درس ابن حيان على شيخه عصره أمثال احمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوي ، وصاعد البغدادي الاديب ، وعمر بن نابل الفقيه المحدث ، وإلى الوليد ابن القرشي المؤرخ الشهور صاحب كتاب تاريخ علماء الاندلس السالف الذكر .

(٤٤) راجع (جونثال بالشيا : تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٧١ ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس .

(١٥) رابع الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور محمود على محسن ابن حيان كمقدمة للقطعة التي نشرها من كتاب القتيس عن امارة عبد الرحمن الاوسط (القاهرة ١٩٧١) .

ثم تقلب ابن حيان في سلك وظائف الدولة براتب واسع الثناء حكم بنى جهور بقرطبة ، ومن أهمها – كما يقول هو نفسه – وظيفة « املاء الذكر في ديوان السلطان المطابق لصناعتي » ، ولعلها تعنى املاء التاريخ ، اي انه كان بمثابة المؤرخ الرسمي للدولة او للمدينة Cronista كما هو متبع في اسبانيا والمغرب حتى اليوم (١٦) .

ولقد كتب ابن حيان عدة مؤلفات تاريخية لم يبق منها الا اجزاء بسيطة ، نذكر منها : –
*** المقبيس في اخبار بلد الاندلس او المقبيس في تاريخ رجال الاندلس او المقبيس من انباء اهل الاندلس .**

ويتناول هذا الكتاب تاريخ الاندلس من الفتح العربي في سنة ٩٦ هـ (٧١١ م) حتى قبيل عصر ابن حيان ، اي حتى نهاية خلافة الحكم المستنصر اواخر القرن الرابع الهجري . وللهذا اضطر ابن حيان الى اقتباس مادة كتابه من كتب المؤرخين الذين سبقوه امثال ابن القوطية وابن الفرضي ، والخشني ، واحمد بن موسى الرازى وولده عيسى وغيرهم . وللهذا سماه ابن حيان بالمقبيس ، على انه يلاحظ ان ابن حيان لم يكن مجرد ناقل من هذه الكتب ، بل كانت شخصيته تطفي على صفحات كتابه بتعلقاته وآرائه وقده (١٧) مما جعل صديقه ومعاصره الفقيه ابا محمد بن حزم يفتخر بهذا الكتاب في رسالته في فضل الاندلس (١٨) .

ولقد وصل اليانا من كتاب المقبيس خمس قطع ، بيانها كالتالى : –

القطعة الاولى : وتنتسب امارة الحكم بن هشام الريضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) والشطر الامض من امارة ابنه عبد الرحمن الاوسط (٢٠٦ - ٢٣٢ هـ) وكانت في حوزة المستشرق الفرنسي ليلى بروفنسال الذي التفع منها في ابحاثه . ولكنها اختفت بعد وفاته ، والامل كبير في امكان العثور عليها .

القطعة الثانية : وتنتسب الجزء الاخير من امارة عبد الرحمن الاوسط ، ومعظم امارة ابنه محمد بن عبد الرحمن ، اي من سنة ٢٣٢ الى ٢٦٧ هـ .

وقد نشر الدكتور محمود مكي الجزء الخاص بعبد الرحمن الاوسط (القاهرة) ١٩٧١ وسوف يتبعه قريبا بالجزء الخاص بالامير محمد بن عبد الرحمن .

القطعة الثالثة : وتنتسب عهد الامير عبدالله الاموى (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ونشرها السراحت الاسپاني ملتشور انطونيا Melchor Antuna الذي قتله الشيوعيون سنة ١٩٣٧ في الحرب الاهلية الاسپانية .

(١٦) محمود مكي : المرجع السابق .

(١٧) جارنيا جوميث : حول ابن حيان ، مجلة الاندلس ، المجلد العاشر شتر ١٩٦٦ : Garcia Gomez : A Proposito de Ibn Hayyan, al Andalus Vol. XI, 1966.

(١٨) المترى : نفح الطيب ج ٤ من ١٩٧ .

من التراث العربي الاسباني

القطعة الرابعة : وتساول معظم عبده عبد الرحمن الناصر ، وقد اكتشف حديثا في خزانة القصر الملكي بالرباط ، ولا تزال مخطوطة .

القطعة الخامسة : و تعالج خمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر (٣٦٠ - ٣٦٤ هـ) ونشرها الدكتور عبد الرحمن الحجي (بيروت ١٩٦٥) .

اللتين : الى جانب كتاب المتبس ، الف ابن حيان كتابا آخر سماه « المتن » ، وهو يورخ الفترة التي عاش فيها وشاهد احداثها بنفسه ، وهي الفترة التي تبدأ بفتحة البربر في الاندلس سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) وتنهى قبل موته ابن حيان بسنوات قليلة حوالي سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) اي معظم الفترة المعروفة بعصر ملوك الطوائف .

وكتاب المتن مفقود للأسف ، ولكن من حسن الحظ ان المؤرخين الذين جامعوا بعده ، نقلوا عنه في كتبهم جزءا كبيرا من هذا التراث الضائع ، ومن هؤلاء يأتي في المرتبة الاولى الاديب الاندلسي ابو الحسن علي بن سام في كتابه « الذخيرة في محاسن اهل الجريرة » ، ثم يليه ابن عذاري في الجزء الثالث من كتابه « البيان المغربي » ، وابن البار في كتابه ، وابن بشكوال في صلته ، وابن سعيد في مفربه ، والقاضي عياض في ترتيب المدارك وغيرهم .

ولقد امتازت روايات ابن حيان بالدقّة والعمق ، والنزاهة والصدق ، والنظرية التحليلية الصائبة ، كما امتازت مباراته بالقوّة والسرورنة حتى صار اسلوبه معروفا بطبيعة المخاصم . كذلك اهتم ابن حيان بوضع التقويم العجمي اي الميلادي مقابل التقويم الهجري ، مما سهل على الباحث ربط ومقارنة الاحداث الاسلامية بمثيلاتها المسيحية (١٩) .

عاش ابن حيان حوالي تسعين سنة ، عاصر خلالها عظمة الخلافة الاموية ، كما عاصر الاحداث الدامية التي أدت الى سقوطها وتفككها الى دوليات طائفية متنازعة . ولا شك ان هذه الظروف القاسية التي مرت بالدولة الاموية ، قد اثرت في حياته وفي انتاجه العلمي لانه كان من أنصارها ، وللحظ ذلك في كتابته حيث القسوة والماردة وسلطنة اللسان ، للدرجة ان المؤرخين الذين نقلوا عنه بعد ذلك ، افسطروا الى تهذيب عباراته وحذف القبيح من كلماتها ، وقد صرخ بذلك ابن سام نفسه في مقدمة كتابه .

هذا ، ويدرك صاحب كتاب مفاخر البربر ان رجلا يدعى عبد الرحمن بن عون كتب مختصرا لتاريخ ابن حيان .

٢ - ابو محمد علي بن حزم القرطبي :

ينحدر من اسرة اسبانية الاصل ، وكان ابوه احمد وزيرا للمنصور بن ابي عامر ، وللهذا عاش ابن حزم الفترة الاولى من حياته عيشة سعيدة مرحة في قصور الخلافة بقرطبة . وقد

(١٩) راجع مقدمة كتاب المتبس لابن حيان نشر وتحقيق الدكتور محمود علي مكي .

أثرت هذه الحياة المترفة في تنمية مشاعره ووجده ، مما مكنته من التفرغ للدراسة والتحصيل على كبار علماء عصره .

وحيثما تداعمت الخلافة الاموية بقرطبة وعمت البلاد الفتن والحروب الداخلية ، نهبت قصور ابن حزم بعد خروجه من قرطبة ، فتوجه الى مدينة المرية ، ثم الى مدينة شاطبة في شرق الاندلس ، حيث اخذ يدير المؤامرات لاغاثة الخلافة الاموية المنهارة ، ونجحت المؤامرات بتولية صديقه عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظر ، عرش الخلافة الاموية ، وصار ابن حزم حاجبه اي رئيس وزرائه ، الا ان الخليفة الجديد لم يلبث ان قتل بعد شهرين من توليته سنة ١٤٤ هـ (١٠٢٤ م) .

وقد أثرت هذه الاحداث في نفسية ابن حزم ، فاعتزل السياسة ، وصار مثل معاصره ابن حيان حاد الطبع والمزاج ، سليط اللسان ، حتى شبّه لسانه بسيف الحجاج ، وفي ذلك يقول ابو العباس بن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين » .

ولقد اعتنق ابن حزم المذهب الشافعى اول الامر ، ولكنه لم يلبث ان استحسن المذهب الظاهري الذى نشأ بالشرق على يد داود بن على الاصبهانى ، وهو يقوم على التمسك بظاهر القرآن أي بمعناه اللغوى . وطاف ابن حزم بدول الطوائف في الاندلس مدافعا عن مذهبها ، وكانت له مجادلات مع فقهاء المالكية ، ذكر منها مجادلاته الشهيرة التي جرت بينه وبين الفقيه المالكى ابى الوليد الباجي في جزيرة مبورقة .

وكانت النتيجة أن اصطدم ابن حزم بفقهاء المالكية الذين تعاونوا مع الحكام وكونوا دكتاتورية مالكية في الاندلس . فهاجمهم ابن حزم بشدة وعنتف ، فاعلنوا عنها عليه حربا شعواء ، والبوا الناس عليه ، فامتنعوا عن سماع دروسه في جامع قرطبة ، ثم أمر المتضد بن عباد ملك اشبيلية بحرق كتبه وتحريم قراءتها . فقال ابن حزم في هذا الصدد :

فقال ابن حزم في هذا الصدد :

ان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
يضمّنني القرطاس بل هو في صدرى
يسير معى حيث استقلّت ركائى
وينزل ان انزل ويُدفن في قبرى

وعندما فشل ابن حزم في نشر مذهبه ، اعتزل الناس في بيته الريف بضواحي بلدة نبلة Niebla بالقرب من اشبيلية في غرب الاندلس . وهناك الفمدة كتب لم تخطر عتبه داره . كما يقول معاصره ابن حيان ، وتوفى ابن حزم سنة ٥٦ هـ (١٠٦٣ م) عن واحد وسبعين سنة .

(٤٠) راجع ترجمة ابن حزم في (ابن خلكان : وفيات الأفیان ج ٣ ترجمة رقم ٢١) نشر محبين الدين عبد الحميد .

من التراث العربي الاسباني

كان ابن حزم شاعراً واديباً ومؤرخاً وفقيها، ولهم جاءت مؤلفاته خليطاً من هذا وذاك؛ فهى كلها تصور حياته في تقلباتها المختلفة، ومن أهمها:-

كتاب طوق الحمامنة في الألفة والالاف : هذا الكتاب كما يقول ابن حزم في مقدمته عبارة عن رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة.

الف ابن حزم هذا الكتاب في أيام شبابه سنة ٤١٠ هـ، فهو يصور حياته المرحة وال أيام السعيدة التي قضتها في قرطبة أيام صباه . ولم يعتمد ابن حزم في كتابه على ما كتبه الأقدمون من الشعار الغزل وأخبار المشاقق وبكام الأطلال والمدن ، بل سلك طريقاً مستقلاً بين نضجه وأصالته واعتداده بنفسه ، وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه : « ودعنى من ذكر الاصرار والتقدعين ، فسبيلهم غير سينانا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أرضى مطية سواى » . ويقول أيضاً :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولكن عيبي ان مطلعى الفرب

ولقد اهتم المستشرقون بكتاب طوق الحمامنة يعتبر أول دراسة نفسية تحليلية لمطاطة الحب والحبين ، فترجموه إلى لغات عديدة مثل بترسوف Petrof الروسي ، ونيكل Nykla الأمريكي ، وبريشه Bercher الفرنسي ، وغوسبيه Gomez الإسباني .

كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل : هذا الكتاب يختلف تماماً عن كتاب طوق الحمامنة، إذ انه يتناول دراسة الاديان والماهاب والفرق الدينية المختلفة ، ومقارنته بعضها بالبعض الآخر .

ويلاحظ ان هذا النوع من الدراسة ، وهو التاريخ المقارن للاديان ، لم يوجد في أوروبا الا في القرن الماضي ، وهذا يربينا أهمية كتاب الفصل الذي ألفه ابن حزم في القرن الخامس الهجري .

نشر هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٣٢١ هـ، وكتب على هامشه كتاب الملل والنحل للشهرستاني الذي عاش بعد ابن حزم ب نحو قرن من الزمان . وقد ترجم كتاب الفصل إلى الإسبانية في خمسة أجزاء بواسطة الراهب الإسباني المشهور أسينيانوس Asian Palacios الذي خصص الجزء الأول ونصف الجزء الثاني لدراسة تفصيلية هامة عن ابن حزم .

كتاب جمهرة انساب العرب : وهو عظيم المائدة لمن يدرسون تاريخ الإسلام في الشرق والمغرب ، ويتناول الكلام بصفة خاصة عن الأسر العربية والبربرية والإسبانية الأصل التي عاشت في الاندلس . نشره ليفي بروفنسال في مجموعة ذخائر العرب سنة ١٩٤٨ .

* نقط العروس في أخبار بنى أمية بالأندلس :

وهو عبارة عن ترجم متنفرقة لخلفاء بنى أمية في الاندلس مع الاهتمام بالاحاديث الشرعية والمواضيع النادرة في عهدهم مثل « تسمية من ولى الخلافة في حياة أبيه » ، و « من ولى الخلافة دببا » و « أكثر الخلفاء عمرًا » ، وما إلى ذلك .

وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الألماني زايبلود Seybold في غرناطة سنة ١٩١١ ، ثم ترجمه إلى الإسبانية المستشرق الإسباني لويس سيكودي لوثينا L.Seco de Lucena سنة ١٩٤٦ ، ثم أعاد نشره الدكتور شوقي ضيف في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٥٤ .

* رسالة في بيان فضل الاندلس وذكر علمائه :

أورد المؤرخ الجزائري أحمد القرى نص هذه الرسالة في كتابه *نفع الطيب من فضل الاندلس الرطيب* (٢١) ، كما ترجمها المستشرق الإسباني جاينجوس إلى اللغة الإنجليزية ضمن الأجزاء التي ترجمها من كتاب *نفع الطيب* (٢٢) . وقد كتب ابن حزم هذه الرسالة رداً على رسالة ابن الريبي التميمي القمياني ، التي يذكر فيها قصص أهل الاندلس في تحليل أخبار علمائهم ومآثر فضلهم وسير ملوكهم ، فاعتبر ابن حزم يذكر علماء الاندلس ويعدد إفضالهم ومؤلفاتهم في حماس بالغ لوطنه (٢٣) . وقد كانت هذه الرسالة بداية للعديد من الرسائل التي كتبها علماء الاندلس حول فضائل الاندلس أمثال ابن سعيد المغربي (٢٤) ، وأبن الوليد الشقنقري (٢٥) ، ولسان الدين بن الخطيب (٢٦) .

* رسالة الأخلاق والسيير في مداواة النفوس :

وهي بمثابة مذكرات شخصية تعبّر عن مشاعره النفسية في الفترة الأخيرة من حياته ، وقد ترجم آسيين بلاطيوس لهذا الكتاب إلى الإسبانية بعنوان : *Los Carácteres Y La Conducta*, (Madrid 1916) وانتشر مذهب ابن حزم الظاهري بعد وفاته بعده ، فمن المعروف أن المدّى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، قد مزج بعض تعاليم ابن حزم في دعوته ، ولا سيما ما يتعلق منها بمحاربة التقليد والاحتقار المذهبى ، وكان هدفه من ذلك هو محاربة نفوذ المالكية الذي كان قد ازداد في عهد دولة المرابطين (٢٧) كما كان الحال في عهد ملوك الطوائف من قبل .

وبعد سقوط دولة الموحدين في القرن السابع الهجري (١٣ م) ، اضمحلت مدرسة ابن حزم وإن كانت آثارها ظلت باقية في المغرب عدة قرون، يروى ابن الخطيب في هذا الصدد إن الفقيه

(٢١) راجع (المقري : *نفع الطيب* ج ٤ ص ١٥١ وما يليها).

Pasqual de Gayangos : The History of the Mohammedan dynasties in Spain extracted by Ahmad al Maqqari 2 Vols (LONDON 1840-1843)

(٢٢) جوناثال بالشيا : تاريخ الفكر الاندلس من ٢٢١ لترجمة الدكتور حسين مؤنس .

(٢٣) (٢٤) (٢٥) راجع (المقري : *نفع الطيب* ج ٤ ص ١٧١ ١٧٧) .

(٢٦) انظر (أحمد مختار العبادي : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) الاسكتلندية سنة ١٩٥٨) .

(٢٧) راجع (أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس من ١٠٧ وما يليها (الاسكتلندية ١٩٦٨) .

عبد المهيمن الاشجعى البلدودى (بلدوود من اعمال مالقه) كان يقلد مذهب ابى محمد علي بن حزم القىقى الظاهرى ، ويصول بلسانه على من نافره بالأندلس والمغرب ، وانتهى الامر بقتله فى فاس سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) من جراء هجوم لشاعر بنى مرين ابى فارس عزوز (٢٨) . كذلك كان ابن حزم موضع مدح الكثرين من فلاسفة المسلمين أمثال الغزالى ، وابن رشد ، ومحبى الدين بن عربى .

٣ - ابو بكر الطروشى : ٤٥١ - ٥٢٠ هـ = ١٠٥٩ - ١١٦٦ م :

هذا العالم المتصوف ابو بكر محمد بن الوليد الطروشى الملقب بابن ابى زندقة ، هاش معظم حياته في القرن الخامس الهجرى ، واصلله من بلد طرطوشى في شمال شرق اسبانيا ، وعلى الرغم من كونه اندلسيا ، الا انه لم يشارك في الاحداث السياسية التي مرت بياده كما فعل معاصره ابن حيان وابن حزم ، لأنه رحل الى المشرق في شبابه، وطاف بانحاء العراق والشام ومصر ، واستقر اخيراً في مدينة الاسكندرية أيام الفاطميين الى ان مات بها . ولا يزال قبره يزار هذاك في شارع الباب الاخضر في منطقة الجمرك (٢٩) . وتتجذر الاشارة هنا ان استقرار الطروشى بالاسكندرية لم يقطع صلته بوطنه فالمسار التاريخية تشير الى رسالة النصح والارشاد التي بعث بها الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين عاهل المغرب والأندلس ، كما تشير الى لقاءاته العديدة مع علماء وزعماء ذلك الصقع الفربى اثناء مرورهم بالاسكندرية امثال ابى بكر بن العربي المافرى ومحمد بن تومرت (مهدى الموحدين فيما بعد) اثناء عودته الى بلاده .

وقد ترك لنا الطروشى كتابين احدهما بعنوان « سراج الملوك » ، والآخر بعنوان « الحوادث والبدع » .

* كتاب سراج الملوك :

الفه الطروشى في مصر ، واهداء الى وزيرها المأمون البطائحي في عهد الخليفة الامر الفاطمى . وهو كتاب في الاداب السلطانية ، اذ يتناول الصفات التي يجب ان يتخلل بها الملوك ، والاعمال التي ينبغي ان يقوموا بها في اوقات السلم وال الحرب . ويتعرض الطروشى في معرض كلامه الى أهمية القطاع العسكري في العصر الاموى بالأندلس ، كما يصف النظم الحربية والخطط العسكرية التي ابعتها الجيوش الاندلسية على عهد الامويين . وهذا هو النص الوحيد الذى لدينا تقريباً وحل هذا الموضوع ، ومن هنا تظهر أهمية كتاب سراج الملوك . واليك بعض هذه النصوص :

« وسمعت بعض شيوخ الاندلس من الاجناد يقولون : ما زال اهل الاسلام ظاهرين على عدوهم ، وامر العدو في ضعف والتلاصق ، لما كانت الارض مقطعة في ايدي الاجناد ، فكانوا

(٢٨) ابن الخطيب ، الا حلقة في اخبار فرناطة (مخطوطة الاسكوربالي) لوحة ٢٧٧ .

(٢٩) عن حياة الطروشى (راجع ما كتبه عنه المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه اسلام الاسكندرية في العصر الاسلامى (دار المعارف ١٩٦٥) .

يستغلونها ويرثون بالفلاحين ، ويرثونهم كما يرثى التجار تجارتة ، وكانت الارض عامرة . والاموال وافرة ، والاجناد متوازرين ، الى ان كان الامر في آخر ايام المنصور بن ابي عامر ، فرد عطایا الجندي مشاهراً بقبض الاموال ، وقدم على الارض جباه يحبونها ، فاكروا الرعایا ، واجتاحتها اموالهم ، واستضعفوهن فتهاربت الرعایا وضعفوا عن العمارة ، فقتلت الجبابيات المرتفعة الى السلطان ، وضفت الاجناد ، وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى اخذ الكثير منها ... الى ان دخلها الملتزمون (المرابطون) فردو الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم ، ولا ادرى ما يكون وراء ذلك (٢٠) .

صفة ترتيب الجيش عند اللقاء :

فاما صفة اللقاء ، وهو احسن ترتيب رأيناها في بلادنا ، وهو ارجى تدبیر نفعله في لقاء عدونا ، ان تقدم الرجال بالدرب الكاملة ، والرماح الطوال والمباريق المسنونة النافذة ، فيصفعوا صفوهم ، ويرکزوا مراكزهم ، ورماحهم خلف ظهورهم في الارض ، وتصورهم شارعة الى عدوهم ، وهم جائعون في الارض ، وكل رجل منهم قد قدم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه . وخلفهم الرماة المختارون التي تعرف سهامهم من الدروع ، والغيل خلف الرماة . فإذا حملت الروم على المسلمين ، لم يتزحزح الرجال عن هياكلهم ولا يقوم رجل منهم على قدميه ، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجال بالباريق ، وصدر الرماح تلقاهم ، فأخذوا يمنة ويسرة ، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجال ، فتنازع منهم ما شاء الله . ولقد حدثني من حضر مثل هذه الواقعة في بلدى طرطوشة قال :

صافينا الروم على هذا الترتيب ، فحملوا علينا ، فبينا رجل منا كان في آخر الصف ، فقام على قدميه فحمل عليه علچ من العدو فاصاب فرجه فقتل (٢١) .

وكتاب سراج الملوك طبع في القاهرة مدة مرات اقدمها طبعة بولاق ١٢٨٩ هـ . وقد اهتم المستشرقون بهذا الكتاب واستخدموه مادته في كتبهم ، وذكر على سبيل المثال المستشرق الهولندي دوزي الذي نقل اجزاء كبيرة منه في الجزء الثاني من كتابه المعروف باسم « بحوث في تاريخ وادب اسبانيا » (٢٢) وكذلك المستشرق الفرنسي ليفي بروفستال في كتابه « اسبانيا المسلمة في القرن العاشر الميلادي » (٢٣) . وهناك ايضا المؤرخ الاسپاني الاركون الذي ترجم الكتاب الى الاسانية وقدم له بدراسة مفيدة (٢٤) .

(٢٠) راجع (طرطوش) : سراج الملوك ٢٢٩ ، المطبعة التجارية سنة ١٣٥٤ .

(٢١) طرطوش : سراج الملوك ص ٢٢٧ .

(٢٢) Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne (Amsterdam 1965)

(٢٣) L'Espagne Musulmane au Xeme siècle, Paris 1932

(٢٤) Alarcon : Lampara de los Príncipes, 2 tomos (Madrid 1931)

* كتاب الحوادث والبدع :

للطرطوشى كتاب آخر صغير لا يخلو من معلومات مفيدة في الحياة الاندلسية عنوانه الحوادث والبدع . ويتضمن ما ابتدعه الناس من الغرائب والبدع في الصلاة وقراءة القرآن وفي المساجد والجناز واللائمه .. الخ .

واليك نموذجا عن قراءة القرآن بالاحسان والطرب في قوله :

« ثم جعلوا لكل لحن منها اسما مخترعا فنالوا اللحن الصقلبي ، فإذا قرأوا قوله تعالى : « وإذا قيل أن وعد الله حق » ، يرقصون في هذه الآية ، كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخاليل ، ويصفقون بآيديهم على إيقاع الأرجل ، ويرخون الأصوات بما يشتهي تصفيق اليدى ورقص الأرجل ، كل ذلك على نفمات متوازنة (٢٥) .

ومن ذلك الرهب (الرهبان) : ان نظروا الى كل موضع في القرآن فيه ذكر المسيح ، كقوله تعالى : « إنما المسيح عيسى بن مریم » ، وكقوله تعالى : « واد قال الله يا عيسى بن مریم » . فمثلوا أصواتهم فيه بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة في الكمال (٢٦) .

والكتاب نشره محمد الطالبي بتونس ١٩٥٥ .

٤ - مذكرات الامير عبد الله بن بلقين بن زيري الصنهاجى ملك غرناطة ، المسماة « بكتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيري في ثريانة » :

والامير عبد الله هو آخر ملوك غرناطة من بنى زيري في عصر ملوك الطوائف بالأندلس (٤٦٥ - ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ - ١٠٧٣ م) وقد انتهى حكمه على يد المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين . ويلاحظ ان هذا الملك ينتمي الى قبيلة صنهاجة التي ينتمي اليها المرابطون ايضا ، وفي ذلك يقول هو نفسه في مذكراته :

« وظننا ان اقباله الى الاندلس منه من الله عظمت لدينا لا سيما من اجل القرابة » .

وفي هذا الصدد ايضا يروى ان والدته اخذت تقول له حينما حاصر المرابطون غرناطة :

« اخرج لتحمي عمرك يوسف » . ولعل هذه القرابة هي التي شفعت له عند المرابطين فلم يقتلوه كما قتلوا بعض ملوك الطوائف لتعاونهم مع العدو وتخاذلهم عن تأييد المرابطين ، فاكتفوا بنفيه هو والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية الى مدينة اغمات في جنوب المغرب .

ويلاحظ ان اغمات في ذلك الوقت كانت مركزا حضاريا وعلميا ممتازا اذا ما قورنت بالعاصمة مراكش التي بناها المرابطون لكون قاعدة عسكرية لجيوبهم . ولعل هذا هو السبب -

(٢٥) الطرطوشى : الحوادث والبدع ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢٦) الطرطوشى : العوادث والبدع ص ٧٨ .

الذى جعل يوسف بن تاشفين يرسل كلا من المعتمد بن عباد ، وعبد الله بن زيري (٢٧) الى اغمات ل توفير سبل الراحة لهما ، لأن مراكش كانت في ذلك الوقت مدينة عسكرية جافة غير صالحة للسكنى وتسمى تاجرات ، ومعناها بالبربرية : المحلة العسكرية .

ولقد أمضى المعتمد بن عباد بقية حياته في المنفى يقول شعرا حزينا ، بينما عكف عبد الله بن زيري على كتابة مذكراته الخاصة التي تضمنت معلومات تاريخية هامة عن عصر ملوك الطوائف بصفة عامة . ومن الطريق أن الوزير الفرناطي لسان الدين بن الخطيب اطلع عليها حينما زار اغمات بعد ذلك في القرن الثامن الهجري (١٤٠ م) ومدحها بقوله : « ووقفت على ديوان بخطه الفه بعد خلمه ، بمدينة آغمات ، وقرر فيه أحواله والحادثة الكائنة عليه مما يستشرف من مثله ، الحفني بها خطيب المسجد بأغمات » (٢٨) .

نشر ليفي بروفنسال هذه المذكرات في بادئ الامر في مجلة الاندلس الاسپانية ١٩٣٥ - ١٩٣٦ ، ثم نشرها بعد ذلك في كتاب مستقل في مجموعة إخائر العرب ، القاهرة ١٩٥٥ .

• • •

(د) : مؤرخو القرن السادس الهجري (١٢ م)

يافق هذا القرن عصر السيطرة المغربية على الاندلس أيام المرابطين والموحدين . ويلاحظ من سير حركة التأليف في ذلك الوقت ، ان هناك اهتماما خاصا من جانب علماء الاندلس نحو جمع التراث العلمي الراهن لهذه الحقبة التاريخية السالفة التي جمعت بين عصر الامريين والطوائف بالأندلس . لهذا عكفتوا على تصنيف الموسوعات التاريخية الأدبية ، والمخترات الشعرية ، ومعاجم الاعلام ، وفهارس الكتب ، وهي كلها فنية بالعادة التاريخية التي تضمنت سير الملوك والرؤساء والعلماء والشعراء الى جانب فروع العلم المختلفة وحركه التأليف في الاندلس في هذه الحقبة المزدهرة .

ومن اهم هذه المؤلفات : -

١- كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، لابن الحسن علي بن بسام الشنترينى (نسبة الى شنترينى Santaren في غرب الاندلس او البرتغال حاليا) . (توفي سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) .

هذا الكتاب ، كما قلنا ، موسوعة أدبية تاريخية تضمنت تراث القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، وهى الفترة العلمية المزدهرة التي جمعت بين عصرى الخلافة الاموية وملوك

(٢٧) نلي الامير عبدالله واهله في بادئ الامر الى مدينة مكناسة بالقرب ثم نقلوا بعد ذلك الى مدينة اغمات حيث تقرر اقامتهم ، وازلوا هناك في دار حسنة وعمولوا برفق ودعابة وعاش عبدالله باغمات حتى توفي . وكتب فيها مذكراته ، راجع المذكرات او كتاب التبيان ص ١٦٢ - ١٦٣ ، ابن الخطيب أعمال الاعلام ص ٢٣٩ .

(٢٨) ابن الخطيب : اعمال الاعلام - القسم الخاص باسبانيا - ص ٢٥ نشر ليفي بروفنسال .

الطوائف . ولما كان المؤلف ابن بسام ، اديبا وليس مؤرخا ، فقد اعتمد في الجزء التاريخي من كتابه على ما كتبه المؤرخ المشهور ابن حيان في كتابه المتن فحفظ لنا الشيء الكثير من هذا التراث الضائع .

وكتاب الذخيرة ينقسم الى أربعة أقسام على حسب الأقاليم الجغرافية الاندلسية كل قسم منها يتكلم عن تاريخ هذا الإقليم وعن ملوكه وامراهاته وشعرائه ... الخ .

فالقسم الأول : يتناول قرطبة وما يجاورها من بلاد وسط الاندلس . وقد نشر معظم هذا القسم في لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٣٩ .

والقسم الثاني : يتناول اشبيلية ومنطقة مغرب الاندلس ، ولا يزال هذا القسم مخطوطا في مكتبة جامعة اكسفورد .

والقسم الثالث : يتناول بلنسية وشمال الاندلس Levante . ولا يزال هذا القسم مخطوطا ، وتوجد نسخ منه في الاكاديمية الملكية بمدريد ، وفي مكتبة الجامعة العربية .

والقسم الرابع : ويتناول الكلام عن الغرب - الدين وفروا على الاندلس من الشرق او من المغرب ، وقد نشر جزء منه بواسطة لجنة التأليف والنشر في القاهرة ١٩٤٥ .

ولقد اشفع المؤرخون والكتاب الحدثيون من هذا الكتاب في بحوثهم عن الاندلس ، تذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما كتبه دوزي عن تاريخ بنى عباد ملوك اشبيلية^(٢٩) ، وعن سقوط بلنسية في يد السيد الفارس المحارب رذرفيق القمبطرor El Cid Rodrigo El Campocador الذي نقل عنه ابن بسام عبارة تبين طموحه وجشعه بقول :

« حدثني من سمعه يقول ، وقد قوى طمعه ولع به جشعه : « على رذرفيق فتحت هذه الجزيرة ، ورذرفيق (يعنى نفسه) يستنقذها »، كلمة ملات الصدور ، وخيلت وقوع المخوف والمحدور . »^(٣٠)

كذلك اعتمدت على كتاب الذخيرة في البحث الذي نشرته عن الصقالبة والدوبلات الصقلية التي قامت في شرق الاندلس في القرن الخامس الهجري ، والرسالة التي كتبها في كشفهم أبو عامر ابن غرسية الشعوبى الذى يفضل فيها العجم على العرب .^(٣١) كذلك اعتمد الدكتور محمود علي مكي على كتاب الذخيرة في البحث الذى القاه فى ميد القاهرة الالفى سنة ١٩٦٨ عن الرسائل

Dozy : *Scriptorum arabum Loci de Abbadedis, Lugduni Batavorum 1852)*

(٢٩) راجع :

Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne, t. II PP. XXVII

(٣٠) انظر :

وذلك (جونثالت بالشيا) تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٩ ، ترجمة د. حسين موسى .

(٣١) احمد مختار العبادي : *المطالبة في إسبانيا وملالتهم بحركة الشعوبية* (مدريد ١٩٥٢) .

المبادلة بين علي بن مجاهد العامري ملك دائية وبين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله في مصر . كذلك اعتمد على كتاب المخربة الدكتور السيد مصطفى غازى في نشره لديوان الشاعر الاندلسي ابن خفاجة (الاسكندرية ١٩٦٠) ، هذا ، وبعد الان الاستاذ عبد الله جمال الدين رسالة لنيل درجة الدكتوراة من جامعة مدريد حول النصوص التاريخية في ذخيرة ابن بسام ... الخ .

٢ - الفتح بن خاقان القيسي الفرناطي (قتل سنة ١١٤٠ هـ / ٥٣٥ م) :

كان معاصرًا لابن بسام ، وقد ترك لماكثتين من هذا النوع من المختارات الأدبية والتاريخية ، وإن كانت القيمة التاريخية قليلة بالنسبة لقيمتها الأدبية العظيمة ، وهما :

* مسرح الانفس ومسرح الناس في ملح أهل الاندلس .

* قلائد المقيلين ومحاسن الأعيان .

أما الأول فقد طبع في القدسية ١٢٠٢ هـ في مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ، وقد قسمه المؤلف إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : يشتمل على سرد حياة الوزراء وتناسق دور الكتاب والبلغاء ، والقسم الثاني على محاسن أعلام العلماء وأيمان القضاة والفهماء ، والقسم الثالث : يشتمل على سرد محاسن الأدباء النوابغ النجباء .

فمن وزراء القسم الأول : الحاجب جعفر بن محمد المصحفي ، أبو العباس أحمد بن اشيه ، أبو محمد بن عبد العزيز ، أبو الحزم بن جهور ، أبو عامر أحمد بن شهيد ، أبو المفيرة عبد الوهاب بن حزم ، أبو الوليد بن حزم وغيرهم .

ومن علماء القسم الثاني : أبو مروان عبد الملك بن حبيب ، المنذر بن سعيد البلوطلي ، يحيى بن يحيى الليثي ، أبو عبد الله بن أبي زمرين ، أبو محمد علي بن حزم ، أبو عبد الله محمد الخشنى ، أبو بكر بن القوطيه ، ابن الفرضي ، ابن سيدة ، ابن مسرا ، أبو بكر بن العربي ، ابن عبد البر ، وغيرهم .

ومن أدباء وشعراء القسم الثالث : يوسف بن هارون الرمادي ، ابن هانئ الاندلسي ، ابن فرج الجياني ، أبو بكر عبادة بن ماء السماء ، أبو جعفر بن البني ، وغيرهم .

* أما الكتاب الثاني وهو قلائد العقيان ، فقد نشر أيضًا في بولاق وفي باريس ، كما نشره هنري بيريس في الجزائر سنة ١٩٤٦ . وهو أيضًا يتضمن تراجم لكتاب الشخصيات الاندلسية التي لم يرد ذكرها في المطرح مثل : المعتمد بن عباد ، أبو الوليد أحمد بن زيدون ، أبو بكر بن عمار ، وابن خفاجة . ولم يعتمد ابن خاقان في كتابه بسير حياة شخصياته التاريخية بقدر اهتمامه بانتاجهم الأدبي من نظم ونشر ، ولهذا كانت تراجمها ناقصة على عكس ابن بسام الذي استوفى هذا النص التاريخي بما أورده ابن حيان في تاريخه . (٢)

(٢) راجع ما ورد في كتابي المطبع والقلائد من تراجم .

وتوفى ابن خاقان مخنوقاً في مدينة مراكش ٥٣٥ هـ ، وكان مدمناً على شرب الخمر ، ويقال أن علي بن يوسف ابن ناشفين هو الذي أزعجه قتله ، ويقال أن بعض أفراد حاشيته هم الذين دبروا قتله لآله من نقهـ . (٤٢) وتتجذر الاشاره هنا الى ان ابن خاقان الاندلسي هو غير ابن خاقان المشرقي الذي كان وزيراً لل الخليفة العباسى المتوكـل والذى توفي سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٧) .

٣ - فهرسه ابن خير للعالم الاسبـلي ابن يكر محمد بن خير المتوفى سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧) .

والكتاب بعنوان : الفهرس من الكتب المصنفـى ضروبـ العلم وانواعـ المـعارفـ ويتضـمنـ كما هو واضحـ من عنوانـهـ اـسمـاءـ المؤـلفـاتـ والـدواـونـ التـىـ ظـهـرـتـ فـيـ شـتـىـ الـعـلـومـ فـيـ الـانـدـلـسـ حتـىـ اـيـامـهـ ، اوـ بـمعـنىـ آخـرـ يـتـنـاـولـ حـرـكـةـ التـالـيفـ بـالـانـدـلـسـ . وـبـقـعـ فـيـ جـزـائـرـ وـنـشـرـهـ كـوـديـراـ وـرـيـسـراـ فـيـ مـدـرـيدـ ١٨٩٥ـ .

٤ - بغية الماتـمسـ فـيـ تـارـيـخـ عـلـمـاءـ الـانـدـلـسـ الـعـالـمـ الـمـرسـىـ اـحـمـدـ الضـبـيـ المتـوفـيـ سـنـةـ ٥٩٨ـ هـ (١٢٠٢ـ مـ) وـيـتـضـمـنـ تـرـاجـمـ الـلـوـكـ وـعـلـمـاءـ الـانـدـلـسـ وـالـوـافـدـيـنـ عـلـيـهـاـ حتـىـ اـوـاخـرـ الفـرـنـ السـادـسـ الـهـجـرـيـ . وـقـدـ نـشـرـهـ اـيـضاـ كـوـديـراـ وـرـيـسـراـ بـمـدـرـيدـ بـدـسـنـةـ ١٨٨٥ـ .

٥ - كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثتهم وأدبائهم للعالم القرطبي ابن القاسم خلف بن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨٢ مـ) .

و واضحـ منـ اـسـمـ المؤـلـفـ ابنـ بشـكـوالـ آـنـهـ تـحـرـيـفـ لـلـاسـمـ الـاسـبـانـيـ بـسـكـوالـ Pascual و واضحـ ايـضاـ منـ عنـوانـ كـتابـهـ آـنـهـ صـلـةـ اوـ تـكـمـلـةـ . لـكتـابـ آـخـرـ وـهـ تـارـيـخـ عـلـمـاءـ الـانـدـلـسـ لـلـمـؤـرـخـ القرطـبـيـ ابنـ الفـرـضـيـ السـالـفـ الذـكـرـ فـيـ طـبـقـةـ عـلـمـاءـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ الـهـجـرـيـ .

وقد سار ابن بشكوال على نهج ابن الفرضي في طريقة تأليفه ، إذ يقول هو نفسه في مقدمة كتابه : « ورتبتـهـ عـلـىـ حـرـوفـ الـمـجـمـعـ كـتـابـ ابنـ الفـرـضـيـ وـعـلـىـ رـسـمـهـ وـطـرـيقـهـ » . والكتاب يقع في جزـائـرـ وـنـشـرـهـ كـوـديـراـ فـيـ مـدـرـيدـ سـنـةـ ١٨٨٣ـ .

٦ - وهناك عالم جغرافي مشهور عاش في القرن السادس الهجري وهو الشريف أبو عبد الله محمد الأدرسي (٤٩٣ - ٥٤٨ = ١١٥٤ - ١١٠٠ مـ) . و واضحـ منـ اـسـمـهـ آـنـهـ منـ سـلاـلةـ الـادـارـسـةـ (ابـنـ حـفـيدـ اـدـرـيسـ الثـالـيـ الحـمـودـيـ صـاحـبـ مـالـقـهـ) . ولـدـ بـمـدـيـنـةـ سـبـتـةـ فـيـ الـمـغـرـبـ الـأـقـصـىـ . و درـسـ بـقـرـطـبةـ وـطـافـ باـحـادـ الـعـالـمـ الـاسـلـامـيـ وـالـأـوـرـوبـيـ مـطـلـماـ عـلـىـ أـحـوـالـ تـلـكـ الـبـلـادـ وـعـادـاتـ اـهـلـهـ . تمـ استـدـعـاهـ الـمـلـكـ الـنـورـمـانـيـ رـوـجـرـ الثـانـيـ أوـ رـوـجـارـ IIـ صـاحـبـ صـقلـيةـ ، فـلـيـسـ الـادـرـسـيـ دـعـوـتـهـ ، وـرـسـمـ لـهـ صـورـةـ أـوـخـرـيـطةـ لـلـعـالـمـ الـمـرـوـفـ فـيـ عـصـرـهـ عـلـىـ دـائـرـةـ فـضـيـةـ مـسـطـحةـ Planisphere طـولـهـاـ تـلـاثـةـ اـمـتـارـ وـنـصـفـ ، وـعـرـضـهـ مـتـرـ وـنـصـفـ . كـلـكـ الـفـ الـهـ كـتـابـاـ لـوـصـفـ هـذـهـ الـخـرـيـطةـ وـهـ كـتـابـ (ـنـزـهـهـ الـمـشـتـاقـ فـيـ اـخـتـرـاقـ الـأـفـاقـ)ـ وـيـعـرـفـ اـيـضاـ بـالـكـتابـ

(٤٢) جونثالث بالثـيـاـ : تـارـيـخـ الـفـكـرـ الـانـدـلـسـ تـرـجمـةـ دـ.ـ حـسـينـ مـؤـنـسـ صـ ٢٩٧ـ .

الروجاري او كتاب روجار ، لأن روجار الثاني هو الذي استدعاه إلى بلاطه في مدينة بالرسو وطلب منه تأليف هذا الكتاب .

ولقد اهتم المستشرقون بهذا الكتاب القيم وعملوا على نشر اجزاءه وترجمتها إلى اللغات المختلفة . وحسبنا ان المذكور منها القسم الخاص بالمغرب وأرض السودان ومصر والأندلس الذي نشره وترجمه إلى الفرنسية ، دوزي ، ودى خويه (لندن ١٨٦٦) . كذلك نشر الجزء الخاص بوصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، هنري برييس (الجزائر ١٩٥٧) . أما الجزء الخاص بوصف إسبانيا ، فقد نشره وترجمه إلى الإسبانية من قديم خوسيه انطونيو كوندي Conde (مدريد ١٧٤٩) ثم أفاد ترجمته انطونيو بلانكيت A. Belazquez (مدريد ١٩٠١) والمهم في هذا الصدد انه في هذه السنوات الأخيرة ، قامت مجموعة من كبار المستشرقين الإيطاليين أمثال : جيريل F. Gabrieli ، رستانتو U. Oman ، روبناتشى R. Rubinacci ، لاورا F. Rizzitano ، فالبرى وغيرهم ، وعكفوا على نشر كتاب نزهة المشتاق بعد جمع ودراسة أصوله القريبة من عهده ، وأهمها النسخ الخطية المحفوظة بالكتبة الوطنية بباريس ، ومكتبة أيا صوفيا باسطنبول ، ودار الكتب المصرية ، والبودليانا باكسفورد ، ومكتبة لينجراد .. الخ . وقد تم طبع ستة أجزاء من هذا الكتاب العظيم ، بطبعة لندن ، ولم يبق على إقامته سوى جزء واحد .

٧ - ونختتم علماء القرن السادس الهجري بمؤرخ مغربي كبير وهو عبد الملك بن محمد بن احمد الباجي الشهير بابن صاحب الصلاة (توفي سنة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م) وقد ترك لنا كتاباً بعنوان طويل جداً ذكر منه : « تاريخ المغاربة بالامامة على المستضعفين » . وجعلهم الله الملة وجعلهم الوازيتين ، وظهور المهدى بالموحدين » . والكتاب مهم جداً في دراسة تاريخ دولة الموحدين في المغرب والأندلس ، ولا غنى للباحث في تاريخ هذه الفترة من الرجوع إليه والاستفادة من مادته الخصبة . نشره الدكتور عبد الهادي التازى (بيروت ١٩٦٤) .

• • •

(٥) مؤرخو القرن السابع الهجري (١٣ م) :

كان المغرب والأندلس في القرن السابع الهجري ، يكونان دولة واحدة على عهد الموحدين عاصمتها مدينة مراكش التي ازدهرت فيها الحياة الفكرية والعلمية ، وظهرت فيها مجموعة من كبار التلاميذ والإطباء أمثال ابن رشد وابن زهرة وابن طفيل وغيرهم . كذلك ظهر عدد من كبار المؤرخين ذكر منهم :

١ - عبد الواحد المراكشي : كتب في سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٤ م تاريخه المعروف باسم « المحب في تلخيص أخبار المغرب » . ويقع في جزء واحد . والمقصود بكلمة المغرب هنا هو بلاد المغرب والأندلس معاً . ومعظم هذا الكتاب يتناول تاريخ دولة الموحدين التي نشأ المؤلف في كنفها ،

ولكنه على سبيل الاستطراد ، قدم له بمقدمة موجزة في تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح العربي فصار الكتاب تاريخا عاما للأندلس لـه قيمة تاريخية وأدبية عظيمة ، ولاسيما فيما يتعلق بالموحدين لأنه بقلم رجل معاصر .

نشر هذا الكتاب في عدة طبعات نذكر منها طبعة دوزي القديمة ، وطبعة سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (القاهرة ١٩٤٩) .

٢ - **كتاب البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب** ، لابن العباس احمد بن عذارى المراكش (كان حيا سنة ٧١٢ هـ) . الكتاب تاريخ عام للمغرب والأندلس منذ الفتح العربي حتى بداية عصر بنى مرين ، وهو يعتبر مصدرا أساسيا هاما في تاريخ هذه الحقبة التاريخية الطويلة . ويقع في عدة أجزاء : الجزء الاول والثانى يتناولان تاريخ المغرب والأندلس الى سقوط الخلافة الاموية . نشرهما دوزي سنة ١٨٥٠ ثم جاء كولان وليفي بروفنسال فأعادا نشرهما ثم أضافا ليفي بروفنسال جزءا ثالثا تضمن عصر ملوك الطوائف (سنة ١٩٣٠) . ثم نشر المستشرق الاسباني اويني ميرالدا والعلماني المغربي ابراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت جزءا رابعا عن تاريخ الموحدين وبداية عصر بنى مرين (الرباط ١٩٦٣) . وكذلك نشر اويني ميرالدا في مجلة هسبريس Hesperis سنة ١٩٦١ قطعة فريدة تتعلق بتاريخ المغاربة من البيان المغرب . واخيرا جاء الدكتور احسان عباس فأعاد نشر الاجزاء الثلاثة التي نشرها كولان وليفي بروفنسال وأضاف اليها جزءا رابعا تضمن القطعة التي نشرها اويني ميرالدا عن المغاربة (بيروت ١٩٦٧) . هذا وتوجد طبعة تجارية لبنانية للجزأين الاول والثانى ولكنها بدون تحقيق او تعليلات (بيروت ١٩٥٠) .

٣ - كتاب المغرب في حل المغرب ، لابن الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي
(ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)

ينتمي علي بن سعيد المغربي الى اسرة من المؤرخين هي اسرة بنى سعيد التي حكمت قلعة يحصب او قلعة بنى سعيد من اعمال غرناطة في القرن السادس والسابع الهجري ، وتسمى اليوم Alcala la Real

وقد تضافر افراد هذه الاسرة على كتابة تاريخ شامل للأندلس في مدة استغرقت اكثر من مائة عام . وكان أبو الحسن علي بن سعيد هو آخر افراد هذه الاسرة الذي اكمل هذا الكتاب وأخرجه في صورته النهائية بعنوان : المغرب في حل المغرب . ولد ابن سعيد في قلعة يحصب بغرناطة ، وتعلم في اشبيلية ثم غادر الاندلس وهو في سن الثلاثين الى المشرق حيث ادى فريضة الحج وطاف بانحاء العراق ومصر والشام وتونس . وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٨٥ هـ ، وان كان البعض يرى انه مات بتونس .

وكتاب المغرب في حل المغرب ضاع معظمه ولم يبق منه سوى اجزاء تضمنت تراجم بعض الشخصيات البارزة في الاندلس من العصر الاموى حتى نهاية عصر الموحدين . وقد نشر الدكتور

شوقى ضيف بعض هذه القطع فى جزأين من مجموعة دخائل العرب بالعنوان نفسه « رياض البرزين Las Banderas de las campeones العاشر الى الثالث عشر الميلادى . وكان ابن سعيد قد اهداها الى حاكم القاهرة على أيامه موسى بن يفهور في عهد السلطان الصالح نجم الدين ايوب وابنه تورانشاه . ولما كانت مصر في تقسيم ابن سعيد الجغرافى تدخل في نطاق المغرب الاسلامي : فقد خصها بتصنيف كبير في تاريخه ومن بقایا هذا التاريخ قطعه بعنوان « الميون الدمع في حلی دولتی طفح » ، وهى تتناول تاريخ الدولة الاختية في مصر ، تقلما ابن سعيد عن الحسن بن زولاقي المصرى ، وقد طبعت هذه الفطمة في ليدن ، نشر كنوت تلوكست (١٨٩٩) هذا ، وقد حفظ لذاللؤرخون المتأخرین اجزاء كثيرة من كتاب المغرب لابن سعيد امثال المcriزى في خططه ، ابن خلدون في تاريخه ، واحمد المقرى في كتابه نفح الطيب من فصل الاندلس الرطيب . والجزء الاول من هذا الكتاب الاخير يحتوى على فرات طويلة من كلام ابن سعيد .

٤ - محمد بن عبد الملك الراكنى (ت ١٢٠٢ هـ = ١٣٧٠ م) : الف موسوعة تاريخية بعنوان : « كتاب الذيل والتكميلة لكتابي الموصول والصلة » . واضحة من عنوان الكتاب انه تدليل لكتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى ، وكتاب الصلة لابن بشكوال .

لا نعرف شيئاً كثيراً عن حياة هذا المؤرخ الكبير ، على الرغم من ان معظم المؤرخين الذين جاءوا بعده قد نقلوا من كتبه ، الا انهم لم يتمتموا بكتاباته ترجمة مفصلة لحياته . كل ما نعرفه عنه جاء في اشارات متفرقة وردت في كتاب : « الديباج المذهب » لابن فرحون ، وكتاب « درة الحجال في غرة اسماء الرجال لابن القاضى » ، وكتاب « المرقبة العليا » للحسن النباھي ، و « صلة الصلة » لابن الزبير .

نشأ محمد بن عبد الملك في مدينة مراكش ، وتولى قضاها ثم رحل الى الاندلس ، واقتصر على زيارة الجزيرة الخضراء ثم عاد الى وطنه . وكان في طبعه حدة وحنف وتقى لاذع مبني على الصراحة والجدة الدامنة ، وربما كان هذا من اسباب عزله عن خطة القضاء وتنفيه عن البلاد . يروى انه لجا الى ابن عبد الواد ملوك تلمسان وفهم العداء القائم بينهم وبين بنى مرين ملوك فاس . وهناك في تلمسان توفي سنة ٣٧٠ هـ .

ويعتبر كتابه « الذيل والتكميلة » قاموساً عاماً لرجال الاندلس ومن رحل اليها من المغاربة والمشاركة حتى آخر القرن السابع الهجري . والكتاب مرتب على حروف المعجم ، وكان يقع في تسعة اجزاء ، سبعة لأهل الاندلس ، واثنان للفرباء الذين دخلوا الاندلس ، ثم ينتهي الكتاب بتراجم للنساء الاندلسيات والمغربيات اللاتي زرن الاندلس .

وقد ضاعت بعض اجزاء هذا الكتاب ، اما الاجزاء الباقية فيقوم بنشرها الاستاذان احسان عباس ومحمد بن شريفة ، وقد صدر منها فعلا خمسة مجلدات في بيروت (١٩٦٤ - ١٩٦٥) .

٥ - المؤرخ البليسي ابن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاوي المتوفى سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) : وكلمة الأبار قد تعنى صانع البر ، والابرة هي سلة الحديد والجميع ابر وابار .

ولد ابن الأبار في مدينة بلنسية بشرق الاندلس سنة ٥٩٥ هـ ودرس على والده وعلى فره من علماء المدينة . ولما حاصر ملك أراجون خايبي الفاتح مدينة بلنسية ، فر ابن الأبار منها إلى سلطان تونس أبي زكريا الحفصي أقوى ملوك المغرب في ذلك الوقت ، وطلب نجاته بقصيدة سينية مشهورة ، يقول في مطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا
ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمتن
فلزم يزل منك عن النصر ملتمسا

وقد بادر أبو زكريا أغاثة المدينة وأمداد أهلها بالاموال والأسلحة والاقوات ، ولكن بعد غوات الاوان ، إذ سقطت المدينة في يد ملك أراجون سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) قبل ان تصلها النجدة .

واضطر ابن الأبار واسرته إلى الهجرة إلى تونس حيث عينه السلطان كتابا له . ثم حدث أن فضب عليه السلطان ، فترك ابن الأبار تونس واستقر في مدينة بجاية حيث كتب كتابه « امتحن الكتاب » ، ذكر فيه من عزبه أو اعتبه من الكتاب وغفى عنهم ، ثم رفعه إلى السلطان أبي زكريا مستشفعا ولـى عهده المستنصر بالله ، فعفّ عنه الخليفة المستنصر بـاهاده إلى الكتابة .

ولما مات السلطان أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر بالله سنة ٦٤٧ هـ ، عاد ابن الأبار بفطنته وكباريائه إلى الثارة فضب السلطان الجديد . وانتهز أعداؤه هذه الفرصة وأخذوا يكيدون له بشتى الوسائل ، فنسبوا إليه قصيدة فيها طعن في الخليفة المستنصر يقول في مطلعها :

طفا بتونس خالق
سموه ظلما خليفـه
ففضب منه المستنصر وأمر بقتله وحرقه سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

ولقد ترك ابن الأبار عدة مؤلفات نذكر منها :

* **كتاب التكميلة لكتاب الصلة** : اي تكميله لصلة ابن بشكوال السالف الذكر ، وهو عبارة عن تراجم لأسماء الملوك والعلماء الاندلسيين مرتبة حسب حروف الهجاء ، وفي آخر كل حرف يذكر المؤلف أسماء القراء الذين وندوا على الاندلس من المشرق والمغرب .

وهذا الكتاب نشر على عدة مراحل : نشره أول الامر المستشرق الاسباني كوديرا في جرائن (مدريد ١٨٨٧) . لم يثر على نسخة خطيبة أخرى في مكتبة سليمان باشا إباظة بالقاهرة تزيد على النسخة التي اعتمد عليها كوديرا ، فقام العالمان الاسبانيان الاركون وبالنتيا Alarcon, Palencia بنشر ملحق خاص بهذا الجزء الرابع من كتاب التكميلة سنة ١٩١٥ . وهي الرغم من ذلك ظل الكتاب ناقصا من أوله باسماء الاعلام التي تبدأ بحرف A ، ب ، ت .. وأخيراً عشر الاستاذ

الجزائري محمد شنب على هذا الجزء الناقص في مكتبة الاستاذ عبد الحفيظ الكتائبي، فنشره في المجلة
الافريقية - Revue Africaine 1923

ولاشك أن الكتاب يحتاج إلى طبعة جديدة تضم كل هذه المحاولات والجهودات السالفة ، كى
يسهل على الباحث الاطلاع عليها .

* **كتاب المعجم لاصحاب الصدق** : والصدق هو أبو علي الحسين بن محمد السرقسطي
٥١٤ هـ . وقد اهتم القاضي عياض السبتي الاندلسي ، وكان قاضياً ومحدثاً كبيراً وتوفي سنة
(٤٤٥ هـ) بدراسة حياة هذا المحدث الكبير ، فالف معجماً أو فهرسة لشيوخ الصدق . ثم جاء
ابن الإبار وكتب معجمه الذي يحتوى على تراجم لطلاب الصدقى بغض النظر عن موطنهم ، ورتب
اسمائهم على حروف المعجم . وللأسف معجم القاضي عياض مفقود ولكن معجم ابن الإبار موجود
ونشره كوديرا (م دريد ١٨٨٥) .

* **كتاب الحلة السbezاء** : أى الشوب المخطط كنایة مما يتضمنه من أدب وشعر وتاريخ .
والكتاب يتناول أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري
(١٣ م) . وهو مقسم إلى قرون مستقلة ، تبدأ بالقرن الأول الهجري فيتكلم فيه عن موسى بن
نصر وغيره من ولاة المغرب والأندلس وما قالوه من شعر ونثر . ثم ينتقل إلى القرن الثاني
الهجري ، فيتكلم عن عبد الرحمن الداخل وغيره من أمراء المغرب والأندلس وما تركوه من ثراث
أدبي ، ويستمر هكذا إلى نهاية الكتاب في المائة السابعة .

والكتاب نشره دوزي أول الأمر ثم الألماني مولر ، ثم الدكتور حسين مؤنس حديثاً في جزأين
مع مقدمة دراسية قيمة (القاهرة ١٩٦٣) .

ولابن الإبار كتب أخرى أدبية مثل اعتاب الكتاب السالف الذكر ، ونشر معظمها السيد صقر
(القاهرة ١٩٤٧) وكتاب تحفة القادر الذي لم يبق منه إلا مختصر له وهو مقتضب تحفة القادر الذي
نشره بطرس البستاني في مجلة الشرق ، ويقول ابن الإبار أنه سماه « تحفة القادر » لأنها هارض
به كتاب « زاد المسافر » لصفوان بن ادريس المرسي (٥٩٣ هـ) (٤٤) .

• • •

(و) مؤدو القرن الثامن الهاجري (١٤ م) :

إذا انتقلنا إلى القرن الثامن الهاجري أو الرابع عشر الميلادي ، نجد أن مدن الأندلس وولاياتها قد
سقطت كلها في أيدي الإسبان حتى انحصر ملك المسلمين هناك في رقعة ضيقة من الأرض ، وهي
غرناطة وأحوازها في جنوب شرق إسبانيا ، وبذلك انتقل الإسلام في الأندلس إلى مرحلته الختامية .

(٤٤) راجع (عبد العزيز عبد المجيد : ابن الإبار ، حياته وكتبه ، (طنوان ١٩٥١) .

ولا شك ان هذه المحن والخطوب التى مرت بال المغرب الاسلامى ، قد جعلت المؤرخ فيه يتوجه اتجاهها فلسفيا عميقا، فيتعرف على علل الحوادث، وأسباب قيام الدول، وأسباب سقوطها . ومشاهير العمران فيها ونحو ذلك . وهذا ما فعله نيلسوف مؤرخى الغرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه التى لم يكتب مثلها فى الاسلام على الاطلاق .

وما يقال من ابن خلدون يقال ايضاً عن معاصره وصديقه لسان الدين بن الخطيب وزير مملكة غرناطة في ذلك الوقت . فقد حاول هو الاخر تفسير الاحداث التاريخية بدراسة المظاهر الاقتصادية والاجتماعية في الاندلس ؛ بل انه في بعض الاحيان كان يستعين بالاتنان فينقل النقوش المكتوبة التي على شواهد القبور او المنشآت الملكية . وقد سهل له منصبه كوزير مهمة الاطلاع على الوثائق الرسمية بديوان الانشاء بالقصر السلطاني اي قصر الحمراء .

فكبة التاريخ في القرن الثامن الهجري لم تقتصر على الروايات الاخبارية ، بل تطورت الى الاهتمام بالشئون العامة للجماعات ، وتحليل الحوادث والتغاذ الى اسرارها . ومن اهم مؤرخي هذا القرن ذكر :

١ - لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ = ١٣١٣ - ١٣٧٤ م)

ولد في لوشه Loja ، ودرس في غرناطة ، وشفف بالعلوم الطبية والفلسفية ، واقبل يدرسها على العالم المشهور يحيى بن هذيل ، كما ظهرت براعته في قرض الشعر ، وتبجل علمه الواسع بالآدب العربي في سن مبكرة .

ولم يلبث ابن الخطيب بفضل مهارته وذكائه ان دخل الوزارة ، ونال حظوة كبيرة عند ملوك بنى الاحمر ، فصار وزيرهم الاول في عهد ابن الحاج يوسف الاول وابنه محمد الخامس الفنى بالله .

ولم يقتصر نشاط ابن الخطيب السياسي على مملكة غرناطة فحسب ، بل امتد مؤثرا في سياسة دول المغرب ، مثل دولة بنى مرين في فاس ، ودولة بنى عبد الواد في تلمسان ، ودولة الحفصيين في تونس . كذلك اثرت سياساته في الممالك الاسبانية المسيحية مثل قشتالة وأراجون والبرتغال ، ومحفوظ لدينا رسائل عديدة باللغات العربية والقشتالية تبودلت بين هذان السياسيان الذاهنة وبين مملوك تلك البلاد .

والى جانب هذا النشاط السياسي ، كان لابن الخطيب مقلية موسوعية ، استواعت جميع أنواع المعارف والفنون المعروفة في عصره ، وفي هذالقول له نفسه :

الطب والشعر والكتابة

وقد عرف عن ابن الخطيب أنه كان يخصص الليل للقراءة والتاليف يساعدته في ذلك أرق أصابعه، بينما يخصص النهار لشئون الحكم والسياسة ،ولهذا لقب «بذى العمر بن» .

ومن الغريب أن هذا المجهود الشاق الذي بذله ابن الخطيب في هاتين الناحيتين ، لم يحد من نشاطه وحيويته كوزير وعالم . وكذلك نلاحظ أن حياته العلمية قد اخطلت بحياته السياسية ،

وأفادت كل منها الأخرى . فمركزه السياسي كوزير أتاح له فرصة الاتصال بسفراء الدول المختلفة ، ومعرفة أخبار بلادهم . وعادة ما كان هؤلاء السفراء من العلماء . كذلك أتاح له منصبه كوزير فرصة الاطلاع على الوثائق والرسائل الرسمية المحفوظة بقصر الحمراء ، واستخدام مادتها التاريخية في مؤلفاته .

وفي نفس الوقت، كانت مواهب ابن الخطيب العلمية من أهم العوامل التي ساعدت على تقوية مركزه السياسي كوزير ، وذلك عن طريق الرسائل والقصائد والحكم والنصائح التي كان يرسلها إلى ملوك عصره من المسلمين والمسيحيين ، فكان لها تأثير كبير عليهم وكثيراً ما استجابوا لنصائحه ، فنجحت بذلك معظم أهدافه السياسية ، وحسبنا أن نشير إلى تلك النصائح التي أرسلاها ابن الخطيب إلى ملك قشتالة بيدرو الأول (القاسي El Cruel) باللغة الإسبانية ، والتي أوردها المؤرخ المعاصر لوبيث دي إيلا ، في تاريخه للملك قشتالة (٤٥) .

وفي سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) حدث انقلاب في مملكة غرناطة أدى إلى خلع سلطانها محمد الغني بالله ، وتولى أخيه اسماعيل بن يوسف مكانه . وقد تمكّن السلطان المخلوع من الفرار إلى المغرب الأقصى ، والالتجاء إلى سلطانه أبي سالم أباهيم المريني . وصاحب السلطان محمد الخامس إلى المغرب بعض أفراد حاشيته وسمايليكه وزرائه شخص بالذكر منهم وزير لسان الدين بن الخطيب .

وقد رحب بهم سلطان المغرب وأذن لهم في بعض قصوره بمدينة فاس عاصمة الدولة المرinية . ودامت مدة النفي في المغرب ثلاث سنوات (٧٦٠ - ٧٦٣ هـ) لم يخلد فيها ابن الخطيب إلى الراحة وال الخمول في العاصمة كما فعل مواطنه ، بل عكف على القراءة والتاليف وفرض الشعر والتنقل بين البلدان المغربية لمشاهدة آثارها والاتصال بعلمائها . ثم انتهى به المطاف إلى مدينة سلا (بجوار مدينة الرباط) حيث استقر بها وبضاحيتها شالة Chella مرابطا بجوار ضرحة ملوك بنى مرین .

وتشاء القدر أن يصاب ابن الخطيب في أقرب وأهز الناس عليه ، فتموت زوجته وام أولاده التي كانت تقيل معه في بلد الغربية . وهنا تشد آلامه ، وتعمّره موجة من الحزن والتصوف تظهر آثارها بوضوح في نظمه ونشره ، وفي هذا يقول :

وصدر عنى مما كتب على ضريحها :

وسامي الكل بعد اقبال	روح بالى وهاج بلالى
وعدتى في اشتداد احوالى	ذخيرتي حين خانى زمنى
تعللا بالمحصال في الحال	حفرت في داري الضريح لها
وكيف لى بعدها باموال	وغيطة توهم المقام معى

(٤٥) انظر : Lopez de Ayala : Cronica de los Reyes de Castilla, tomo I P. 483-493.

ذهب مالي و كنت آمالى
وجهك عنى فلست بالمالى
ويقتنصى سرعنى واعجالى
فعن قرب يكون ترحالى

قد كنت مالى لما اقتضى زمنى
اما وقد غاب في تراب سلا
فانتظرتني فالسوق يقلقنى
ومهتمى لى لدبك مضجعا

غير أن هذه الكلمة الفادحة لم تحدّ من حيوية ابن الخطيب ولا من قدرته على التأليف ، إذ استمر في منفاه يقرأ ويكتب في شتى نواحي العلوم والفنون .

ومن أهم مؤلفاته التاريخية في هذه الفترة والتي قضاها في المنفى :

* كتاب **اللمحة البذرية في الدولة النصرية**: ويتناول الكلام عن مملكة فرنطة ، وصفات أهلها وعاداتهم وتاريخ ملوكها . ويعتبر في جزء واحد طبع في القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ .

* كتاب **نفاسة الجراب في علة الاغتراب**: وهو يصور حياة ابن الخطيب في هذه المدة التي قضاها في المنفى ، فيه نجد وصفاً لمشاهداته في البلاد المغربية مع ذكر الاحداث السياسية التي مر بها المغرب في تلك الفترة . وهذا الكتاب يقع في ثلاثة اجزاء ، كان معروفاً منها الجزء الثاني فقط وهو الذي قيمت بشره وتحقيقه في القاهرة سنة ١٩٦٧ . تم عشر اخيراً في مكتبة الرباط على الجزء الثالث من هذا الكتاب القيم وان كان الرأي لم يستقر بعد على الجزم بذلك (٤٦) .

* كتاب **عيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار** : وهو عبارة عن رسالة في وصف بعض مدن المغرب والأندلس ، كتبت في اسلوب فن المقامات المروي في الادب العربي . وقد نشر الجزء الخاص بالأندلس المستشرق الاسباني سيمونيت Simonet ، ونشر الجزء الخاص بالقرب المستشرق الالماني مولر Muller ، وكذلك مطبعة احمد يمني بفاس . ثم أعدت نشر الرسالة كلها من جديد ضمن مجموعة من رسائل ابن الخطيب تحت عنوان : « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس » (الاسكندرية ١٩٥٨) .

* كتاب **الحل المرقومة في اللمع المنقومة**: وهو ارجوزة او فيضة في اصول الفقه ، وهذا الكتاب مفقود ، غير أنه توجد بعض الشروح التي كتبت حوله مثل شرح ابن خلدون ، وشرح أبي سعيد بن لب المسمى « الطرد المرسومة على الحل المرقومة » (مخطوط بالزاوية العياشية او الحمازاوية ، قسم الاصول) (٤٧) .

(٤٦) راجع ما كتبته حول هذا الموضوع في مقدمة كتاب **نفاسة الجراب** لابن الخطيب ص ٨ - ١٠ .

(٤٧) راجع مقالتنا عن مؤلفات ابن الخطيب في المغرب :

* كتاب رقم العطل في نظم الدول : وهو ارجوزة تاريخية تتناول تاريخ الدول الإسلامية ، وقد أهداه إلى سلطان المقرب أبي سالم إبراهيم المريني . والكتاب مطبوع في تونس في جزء واحد سنة ١٣١٧ هـ .

* كتاب كناسة الدكان بعد انتقال السكان: وهو مبارأة من مجموعة من الرسائل السلطانية من أسلاء ابن الخطيب على لسان سلطان غرناطة ، ووجهة إلى سلطان فاس . وقد نص ابن الخطيب في بعض رسائله وكتبه أن جمعها بمدينة سلا في ذلك الوقت (٤٨) . وقد نشر الدكتور محمد كمال شبانة هذا الكتاب (القاهرة ١٩٦٨) .

وفي سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦٢ م) عاد السلطان محمد الخامس إلى عرشه في غرناطة بعد حروب وخطوب شد أثره فيها ملك قشتالة بدور القاسي ، وملك المقرب أبو سالم إبراهيم المريني .

كذلك هاد ابن الخطيب ، بناء على طلب سلطانه ، إلى سابق منصبه كوزير لملكة بنى الأحرم .

وبasher ابن الخطيب من جديد عمله السياسي في غرناطة ، ولكنه في الوقت نفسه عكف على القراءة والتاليف ، وكتب عدة مؤلفات تاريخية تذكر منها :-

* كتاب الاحاطة في تاريخ غرناطة : وهو مبارأة عن تراجم الملوك وأمراء وعلماء غرناطة ، وجميع الدين وفروا عليها من الشرق والمغرب ، مرتبة اسماؤهم على حروف المعجم .

وقد ذكر ابن الخطيب أن الدافع الأساسي لتاليف هذا الكتاب هو حبه لوطنه غرناطة ، ورغبتة في كتابة تاريخ بلده كما فعل ابن عساكر في تاريخ دمشق ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وأبن عبد الحكم في تاريخ مصر .

وتوجد من هذا الكتاب عدة نسخ مبعثرة وناقصة بين مكتبات المقرب وأسبانيا ومصر . وقد نشر الاستاذ عبدالله عنان جزأين من المخطوط ، كما توجد طبعة مصرية قديمة غير كاملة في جزأين . كذلك يوجد مختصر لكتاب الاحاطة كتبه في أواخر القرن الثامن الهجري ، أديب مصرى اسمه بدر الدين البشتكى وسماه « مركز الاحاطة » ، وهو لا يزال مخطوطاً وتوجد منه نسخة في مكتبة الجامعة العربية . وأهمية هذا المختصر أنه كتب من واقع النسخة الكاملة لكتاب الاحاطة ، ولذا احتفظ بأجزاء ضاعت من الأصول الموجودة لهذا الكتاب .

والواقع أن نشر كتاب الاحاطة يحتاج إلى مجهود جماعي من الأدباء والمؤرخين والجغرافيين ، لتحقيق ما ورد في هذه الموسوعة من أعمال وأماكن ، وشرح أسلوبها العقدي على أساس علمي صحيح .

(٤٨) المرجع السابق (مؤلفات ابن الخطيب في المغرب) .

* **كتاب ريحانة الكتاب ونجمة المتناب** : هذا الكتاب جمعه ابن الخطيب أيضاً في هذه الفترة ، وهو عبارة عن المراسلات السلطانية التي دارت بين ملوك غرناطة ، ومعظمها من الشاء ابن الخطيب ، وبين ملوك الدول المجاورة . وقد نشر منه فقط المراسلات التي دارت بين ملوك غرناطة وملوك فاس من بنسي عبد الحق ، أو بني مرين في القرن الثامن الهجري (١٤ م) نشرها العالم الإسباني جاسباراراميرو مع ترجمة إسبانية لها بعنوان :

Gaspar Remiro : Correspondencia diplomática entre Granada y Fez en el siglo XIV
Gra nada 1916).

أى (المكاتب الدبلوماسية بين غرناطة وفاس في القرن الرابع عشر الميلادي (غرناطة ١٩١٦) وباستثناء هذا الجزء المنصور ، فإن كتاب الريحانة لا يزال مخطوطا .

ولقد رسم ابن الخطيب لفرنسا طوال حكمه كوزير مستبد ، سياسة خارجية ثابتة تجاه المغرب ، قوامها الارتباط بعجلة فاس ، ومحاولة ارغاء سلاطين بنى مرين في كل ما يطلبوه من مملكة فرنسا ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « وكانت عينه ممتدة الى المغرب وسكناه ، فكان للملك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه » .

وقد أثارت هذه السياسة معارضات كثرين من رجال الدولة ، فكانت المعايير
ضد هذه ، وتلبد الجو بينه وبين سلطاته محمد الخامس ، وأضطر ابن الخطيب آخر الامر الى
الهروب الى المغرب والاتحاد الى سلطانه أبي فارس عبد العزيز المريني ، الذي رحب به
واحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب . وذلك سنة ٧٧٣ هـ (١٢٧١ م) .

على أن موضع الأهمية هنا ، هو أن ابن الخطيب الذى كان يلمس قوة المغرب في عهد صديقه السلطان عبد العزيز ، رأى بعد أن استحكم العداء بينه وبين ملك غرناطة ، أن يسير في سياسة التقليدية المغربية الى أقصى حدودها خطورة ، الا وهى تحريض سلطان فاس على الاستيلاء على غرناطة ، ليصل بذلك الى هدفه الرئيسي وهو تحقيق الوحدة مع المغرب . ويبدو ان هذه السياسة صادفت هوى في نفس السلطان عبد العزيز - لا سيما بعد ان ضم المغرب الاوسط الى مملكته - فوعد بتنفيذها .

ولكن الظروف سرعان ما تغير الاحوال ، اذ يموت السلطان عبد العزيز بعد هذا الوقت بقليل سنة ٧٧٤ هـ ، ويخلفه على عرش المقرب ابنه أبو زيان محمد **المسعید** ، وكان طفلاً في الرابعة من عمره ، فاستبد بالامر وزيره أبو بكر بن ثاری ، وانتقلب الاوضاع السياسية في المغرب رأساً على عقب .

ورأى ابن الخطيب ان يتقرب الى السلطان الطفل ووزيره ، فالف كتابا مناسبا لهذا الوضع
المحدث اسماه :

* كتاب اعمال الاعلام فيمن بُويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام » .

وَهُذَا الْكِتَابُ رَبِّمَا كَانَ أَخْرَى اِنْتَاجٍ عَلَمِيًّا لِابْنِ الْخَطَّابِ ، وَهُوَ عَبَارَةٌ عَنْ تَارِيخٍ عَامٍ لِعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَيُنْقَسِمُ إِلَى سَلَالَةٍ أَفْسَامٍ : -

القسم الأول : يتناول تاريخ المشرق الإسلامي من السيرة النبوية حتى عصر المماليك وهو لا يزال مخطوطاً.

القسم الثاني : عبارة عن تاريخ عام للأندلس من الفتح العربي حتى عصر المؤلف أي حتى القرن الثامن الهجري . وقد أضاف إليه ابن الخطيب مختبراً ل بتاريخ المماليك المسيحية الإسبانية مثل قشتالة وارagon والبرتغال ، فهو أول تاريخ شامل لإسبانيا وقد نشره ليهي برونسال سنة ١٩٣٤ .

القسم الثالث : ويتناول تاريخ المغرب العربي من أهواز برقا إلى المحيط الأطلسي غرباً حتى بداية عصر الموحدين ، وهي نهاية غير طبيعية بالنسبة للقسامين الأول والثاني التي يلقت عصر المؤلف نفسه مما يجعلنا نعتقد أن ابن الخطيب قتل قبل أن يتم هذا القسم الثالث والآخر من كتابه .

وقد قمت بنشر وتحقيق هذا القسم بالاستراك مع الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني سنة ١٩٦٤ (بالدار البيضاء) .

نهاية ابن الخطيب كانت مأساة إذ تمكّن سلطان غرناطة محمد الخامس من التدخل في شؤون المغرب والقبض على ابن الخطيب وقتلها وحرقه بعد امتحانه وتعذيبه ومصادرة امواله سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) . وبموت ابن الخطيب انقطع اهم مصدر عربي لتاريخ غرناطة .

٢ - عبد الرحمن بن خلدون : (٧٣٢ - ١٤٠٦ هـ - ١٤٣٢ - ١٤٠٨ م)

ولد في تونس ، ولكن أجداده أندلسيون من الشبيلية ، وقد درس على عدد كبير من العلماء الاندلسيين الذين هاجروا إلى تونس واستقروا فيها . وفي شبابه اجتذبه بلاط بنى مرин في فاس للخدمة فيه ، وهناك اتصل ابن خلدون بالوزير الفرناطي لسان الدين بن الخطيب حينما ترقى مع سلطانه إلى المقرب ، وتوطدت بينهما صداقة متينة ظهرت بوضوح في تلك الترجمة الدقيقة التي أفردها له ابن الخطيب بعد عودته إلى وطنه في كتابه الإحاطة ، قال فيها : -

« وأما المترجم به (أي ابن خلدون) فهو رجل فاضل حسن الخلق ، جم الفضائل ، ظاهر الحياة ، أصليل المجد ، وقوه المجلس ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادمة ، قوى الجاش ، طامع لفن الرياسة ، شديد البحث ، صحيح التصور ، كثير الحفظ ، حسن العشرة ، مفخر من مفاخر التخوم المغربية . شرح البردة شرحاً بدليعاً دل على غواصة حفظه ، وتفنن ادراكه ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أبي سالم في العقليات تقيداً مفيداً في المطلق . ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازي ، وبهداعته ، فقلت له : لى عليك مطالبة ، فإنك لخصت محصل (لأن الرازي كان يسمى أيضاً ابن الخطيب) ، والنف كتاباً في الحساب ، وشرع

في هذه الايام في شرح الرجز الصادر عن في اصول الفقه بشيء لاغایة فوقه في الكمال^(٤٩) (يشير بذلك الى كتابه الحل المرقوم في المعم المنظومة السالف الذكر - وهو الفية في اصل الفقه) .

وفي سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) سافر ابن خلدون الى اسبانيا في مهمة رسمية تتعلق بتأكيد صلح بين ملك المغرب وملك فنتالة بدورفالاسى الذي كان مقينا في اشبيلية مقر اجداد ابن خلدون . وقد عرض عليه الملك الاسباني ان يبقى في اشبيلية وان يرد عليه املاك اسرته ، ولكن ابن خلدون اعتذر شاكرا ، ثم رحل الى غرناطة حيث لقى صديقه ابن الخطيب ، ونسرى بخارية اسبانية تدعى هند . وبعد اقامة قصيرة عاد ابن خلدون الى المغرب حيث انضم في حياة سياسية حافلة بالاحداث سواء في بلاط الريينيين في فاس او المحفصيين في تونس ، او بنى عبد الواد في تلمسان .

وحيثما حللت با ابن الخطيب تلك المحنة التي اودت بحياته ، لم يتتردد ابن خلدون في العمل على انقاد حياة صديقه ، اذ يقول هونفسه في هذا الصدد : -

« ويصل الى ابن الخطيب من مجلسه مستصرحا بي ومتوسلا ، فخاطبته في شأنه اهل الدولة ، وعولت فيه منهم على وترمار ، وابن ماساي ، فلم تجده ذلك السعاية وقتل ابن الخطيب في مجلسه ، وكان ذلك في سنة ٧٧٦ هـ »^(٥٠) .

وتشير الروايات الى ان ابن خلدون بعد هذا الحادث ، مل السياسة والحياة العامة ، واثر الاعتزال والانتفاء اربع سنوات (٧٧٦ - ٧٨٠ هـ) قضاهما في قلعة بنى سلامة او قلعة تاوجزوت التي تقع على بعد خمسة كيلو مترات من مدينة فرندة الحالية في ولاية وهران غربي الجزائر ، وقد نص ابن خلدون على ذلك بقوله :

« وانزلوني باهلى في قلعة ابن سلامة (او بنى سلامه) ، من بلاد بنى توجين ، التي صارت لهم باقطاع السلطان ، فاقمت بها اربعة اعوام ، متخليا عن الشواغل كلها ، وشرعت في تاليف هذا الكتاب ، وانا مقيم بها ، واصنعت المقدمة منه على ذلك النحو الفريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة ، فسألت فيها شايب الكلام والمعانى على التكر ، حتى امتحنت زبدتها ، وتالفت نتائجها »^(٥٢) .

وواضح من النص السابق ان ابن خلدون كتب مقدمة تاريخه الخالدة في تلك الخلوة .

وعاش ابن خلدون بعد ذلك مدة طويلة تقرب من الثلاثين سنة ، التقل خلالها الى الشام ومصر ، حيث ولى منصب قاضي القضاة الماليكية في القاهرة ست مرات . وتشير المراجع

(٤٩) راجع (القرى : نفع الطيب ج ٨ ص ٢٧٧ - ٢٨٦) .

(٥٠) راجع (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشمالا ص ٢٢٧ نشر ابن تاوير الطنجي) .

(٥١) ما زالت اطلال هذه القلعة باقية ويقال انه توجد بها مغارة كبيرة يظن ان ابن خلدون كتب مقدمة تاريخه فيها (المصدر السابق ص ٢٢٨) .

(٥٢) نفس المصدر السابق ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

الى انه لما حاصر تيمورلنك المفوبي مدينة دمشق ، تصادف ان كان ابن خلدون بداخلها ، فاستعمل العيلة حتى خرج منها وقصد تيمورلنك راجيا انقاد المدينة ، وحدهه حدثا عذبا كله اطراء ومديح ، فاعجب به تيمور وقرر ان يستعيقه في خدمته ، فلم ير فض ابن خلدون وانما استعاده في ان يذهب الى القاهرة ليعود باهله وكتبه ، فاذن له ، ورحل ابن خلدون الى مصر وهو لا يكاد يصدق بالنجاة .

ولقد درس على ابن خلدون عدد من المؤرخين المصريين شخص بالذكر منهم ثقى الدين أحمد المقرizi الذي صاهره وتأثر به في بعض كتاباته . وتوفى ابن خلدون بمصر سنة ٨٠٨ هـ ومن أشهر مؤلفاته :

* كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي شأن الأكبر .

طبع هذا الكتاب في بولاق في سبعة اجزاء سنة ١٨٦٧ . والجزء الاول من هذا التاريخ هو المقدمة المشهورة التي ينظر فيها للتاريخ على انه فرع من الحكمه او الفلسفة ، وان باطنها تنظر وتحقيق وتحليل للكائنات ومبادئها ، وعلم بكيفيات الواقع وأسبابها ، ومن ثم لا بد من دراسة طبائع البشر والعمران حتى يستطيع الانسان تفهم الحوادث وتقديرها واستفهام عللها وأسبابها .

هذا وقد تضمنت المقدمة ايضا معلومات هامة عن حضارة المقرب والأندلس وانظمة الحكم فيها او ما يسمى بالخطط (بضم الخاء) Institutions . أما بقية اجزاء التاريخ فهي تتناول اخبار العرب واجيالهم منذ بدء الخليقة الى عصره تم اخبار البربر واجيالهم ودولهم بديان المقرب .

* كذلك كتب ابن خلدون كتابا آخر تضمن اخباره ورحلاته في الشرق والمغرب ، يعنوان « التعريف بابن خلدون غربا وشرقا » نشره محمد بن توريت الطنجي (القاهرة ١٩٥١) .

* كتاب الحل الوشية في ذكر الاخبار المراشية ، مؤلف مجهول (القرن الثامن الهجري (١٤) م) .

مؤلف هذا الكتاب لم يذكر اسمه على كتابه ، ولكنه يشير الى انه فرغ من تأليفه في يوم الخميس ١٢ ربیع الاول سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) اي في عهد كل من السلطانين محمد الخامس - الغنی بالله - ملك غرناطة ، وابن زید عبد الرحمن بن ابی الحسن المرینی ملك المغرب .

(٥٣) الخلطة (بضم الخاء) تعنى نظام الحكم فيقال خطة الخليفة او خطة القضاء .. الخ اما الخلطة (بكسر الخاء) لمعنى الحى او المنطق مثل خطط مصر والقاهرة للمقرizi ، وخطط الشام لكرد علي .. الخ .

ولقد نسب بعض المؤرخين المغاربة المحدثين تأليف هذا الكتاب إلى اديب مالقى اسمه ابو عبدالله بن أبي السمك العامری (كان حيا في أواخر القرن الثامن المجري) . غير أن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا - للأسف - الدليل الذي اعتمدوا عليه لإثبات صحة هذه النسبة^(٤) .

ويقع كتاب الحل الموشية في جزء واحد ، وقد طبع أولاً في تونس بواسطة البشير القرني (تونس ١٩١٠) ، وتبنته هذا الناشر خطأ على الوزير الفرناطي لسان الدين بن الخطيب الذي توفي قبل تاريخ تأليف هذا الكتاب ب نحو سبع سنوات !! .

وقد أعاد طبع هذا الكتاب الاستاذ علوش ضمن مطبوعاته معهد الدراسات العليا بالرباط سنة ١٩٣٦ ، وأن كانت هذه الطبعة لم تسلم هي الأخرى من التحريف . ولقد ترجم اوishi ميراندا كتاب الحل الموشية إلى اللغة الإسبانية ، وطبعت الترجمة بمعهد مولاي الحسن بتطوان . ويبدأ كتاب الحل الموشية بتأسيس مدينة مراكش على يد امير المرابطين ابي بكر بن عمر المتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) ويتناول عصر المرابطين والموحدين في شيء من التفصيل ثم يستعرض الحوادث التاريخية التي وقعت في عصر بنى عبد الحق ، او بنى مرين الى سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) .

ولقد استمد المؤلف معلوماته التاريخية من كتب أصيلة معاصرة نص على أصحابها صراحة ، بعضها موجود والبعض الآخر مفقود . والكتاب قيم ومفيد لأنه تضمن حقائق تاريخية ثابتة صحيحة لنا الكثير من الأخطاء التي وردت في الكتب الأخرى ، حلول تاريخ بناء مدينة مراكش ، وأصل تسمية المرابطين ، والنظام العربي المغربي على عهد المرابطين والموحدين^(٥) .

* الانيس المطربي روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس :

اختلف المؤرخون حول مؤلف هذا الكتاب فالبعض ينسبه إلى ابي العباس احمد بن ابي زرع ، والبعض الآخر ينسبه إلى صالح بن عبد الحليم الفرناطي ، وكلاهما عاشا وما تما بالغرب في النصف الأول من القرن الثامن المجري (١٤٠ م) .

والكتاب يتناول تاريخ المغرب الأقصى من سنة ١٤٥ هـ إلى سنة ٧٢٦ هـ أي أنه يشمل تاريخ الدول الخمس التي تداولت حكم المغرب في هذه الحقبة الطويلة وهي : دولة الادارة ، ودولة زناته (المغراويين واليفرانيين) ، ثم دولتا المرابطين والموحدين ، وأخيراً دولة بنى عبد الحق ،

(٤) راجع على سبيل المثال (سليمان العوات : البدور المساوية في مناقب الزاوية الدلالية لوحة ١٢ ، مخطوط بخزانة الرباط رقم ١ ٢ ، D. 261) محمد بن عبد الله بن المؤقت السليوي الراشت : السعادة الابدية في التمريد بمشاهير الحضرة الراشتية ج ٢ ص ١٧٧ (مطبوع على العبر يقال) ، هباس بن ابراهيم الراشتى : الاعلام بمن حل بمراكش والممات من الاعلام ج ١ ص ٢٢ (فاس ١٩٣٦) راجع كذلك :

Levi Provencal : Les Historiens des Chorfa P. 385-386.

(٥) راجع مقالتنا (دراسة حول كتاب الحل الموشية ، و أهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠) .

أو بني مرين التي أنهى المؤلف في عهدها كتابه وأهداه إلى السلطان الخامس من ملوكها وهو أبو سعيد عثمان المريني (٧١٩ - ٧٣١ هـ) ولقد طبع هذا الكتاب على الحجر بفاس مراراً، أولها سنة ١٨٨٥ ثم طبع طبعة حديثة بالرباط سنة ١٩٣٦، ولكنها للاسف غير كاملة إذ تنتهي هذه عصر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الوحدي، كذلك اهتم المستشرقون بنشر هذا الكتاب وترجمته، فهناك طبعة في جزاین للعالم السویدی تورنبرغ Tornberg مع ترجمة لاتينية (ابسالا ١٨٤٢ - ١٨٤٦)، وهناك ترجمة المائة لدومبای Dombay سنة ١٧٩٢، وترجمة إلى البرتغالية الأب مورا Moura بلشبونة سنة ١٨٢٨، وترجمة فرنسية لبومييه Beaumier باريس ١٩٦٠. على أنه يلاحظ أن بعض المستشرقين ترجموا كلمة القرطاس بمعناها اللفظي أى الورق Papier مع أنه اسم علم لحقيقة بضواحي فاس غرسها الرعيم المغربي زيري بن عطيه المغراوى الذى حكم المغرب أواخر القرن الرابع المجرى للمرجة أنه كان يعرف باسم القرطاس أيضاً. وعلى هذا الأساس نرى أن كلمة القرطاس ينبغي أن تبقى كما هي عند نقلها إلى لغة أجنبية أخرى باعتبارها الاسم علم جغرافي.

وعلى الرغم من اهتمام المؤرخين بهذه الكتاب، فإننا نلاحظ أنه مليء بالاختفاء التاريخية مما جعل بعض المؤرخين القدماء والمحديثين يتقدّمون صاحبه ويتهمنه بالكذب والاختلاف. وبיקفي أن نشير إلى تعليق الكاتب المعاصر له وهو الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن في مأثر أبي الحسن» حيث يقول: «فبنو مرين أمرهم الله أسلام زناه ورؤساؤها وكبار قبائلها وعظماؤها، وقد وقفت قدامي على رفع نسبهم إلى زناه، وقرأت بين يدي المولى المرحوم أبو الحسن المريني ما كتبه ابن أبي زرع في ذلك، ومنهم سمعت قدس الله روحهم، أن كثيراً من أخبار ابن أبي زرع انكرها والدتهم المرحوم المولى أبو سعيد عثمان، وأكلبه فيما ادركه مما حكاه على خلاف ما وقع عليه^(٥٦). كذلك لم يسلم صاحب القرطاس من نقده المؤرخين الحديثين من أمثال دوزي، أوishi ميراندا، بونس بوينس، وغيرهم فاتهماه بأنه كثيراً ما استسلم لخياله^(٥٧).

* تحفة الناظار في غرائب الأعماصار وعجائب الأسفار المعروفة برحالة ابن بطوطة :

صاحب هذه الرحالة هو أبو عبدالله محمد الطنجي اللواتي (نسبة إلى قبيلة لواتة البربرية) ويُلقب بشمس الدين ويعرف بابن بطوطة (توفي سنة ٧٧٩ هـ - ١٣٧٨ م).

(٥٦) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في مأثر المولي أبي الحسن ، لوحة ١٩ (مخطوط رقم ١١٩ خزانة الرباط).

(٥٧) راجع على سبيل المثال :

Huci Miramda : La Salida de los Almoravides : del desierto, Hesperis 1959 & Pons Boigues: Historiadores y Geógrafos árabigo — Espanoles p. 240).

ولد في مدينة طنجة سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤ م) ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره ، قام برحلاته الواسعة التي شملت معظم أرجاء العالم المعروف في ذلك الوقت ، وهي تمحض في ثلاث رحلات :

الرحلة الأولى : غادر فيها طنجة سقطراسه سنة ١٣٢٥ م ، وطاف بانحاء المغرب الأقصى ثم اتجه نحو الشرق عبر الجزائر وتونس ولبيبا ثم مصر . ومن هناك سافر الى الصعيد وسافر في طريق الحجج الجنوبي الى ميناء عيداب على ساحل البحر الاحمر كي يبحر من هناك الى ميناء جدة في الحجاز . الا انه لم يستطع البحار من عيداب بسبب حرب قامت بين اهالي هذه المنطقة (البجاية) وبين امراء الماليك حكام مصر ، فاضطر ابن بطوطة الى العودة الى القاهرة ومتابعة رحلته الى الحجاز عن طريق الشام .

وبعد ثانية فريضة الحج ، اتجه الى العراق وايران وبلاد الاناضول (آسيا الصغرى) ، ثم عاد الى الحجاز وحج للمرة الثانية ، ويقيّمها في مكة مدة سنتين .

وفي سنة ١٣٢٩ م غادر الحجاز متوجهًا نحو الجنوب ، فرار اليمن وبلاد الخليج العربي مثل الاسراء والبحرين ، ثم عاد الى مكة وحج للمرة الثالثة .

تم اتجه ابن بطوطة بعد ذلك الى الدولة البيزنطية عبر مصر والشام وآسيا الصغرى ، واستقر في العاصمة مدينة القدس مدة مكنته من وصفها وصفاً دقيقاً . ومن القدس اتجه الى اقصى المشرق حيث زار خوارزم ، وتركستان وافغانستان ، والستان والهند . وكان الاسلام منتشرًا في شمال الهند حتى سلسلة جبال فنديهاس في جنوب دهلي او دلهي . وكانت هذه المنطقة الاسلامية تعرف بهندورستان وعاصمتها مدينة دلهي التي وصفها ابن بطوطة بالحسن والحسنة ، كما وصف ملوك البريدالذين كانوا يشرفون على حالة الامن في البلاد ، ويترفرون على كل شخص غريب يصل اليها : مثل جهاز المخابرات اليوم . كذلك لاحظ ان الاهالي في دلهي يخرجون من باطن الارض ارز الاسود اللون مخزوناً منذ مائة سنة على عهد السلطان بلبان لمقاومة حصار المغول . وقد اكل ابن بطوطة منه وقال ان طعمه طيب . هذا ، وقد استطاع ابن بطوطة ان يجتذب محبة سلطان الهند محمد شاه ، الذي عينه قاضياً في بلاده ثم ارسله مراقباً لبعثة هندية الى ملك الصين ، فمر في طريقه بجزيرة سرديب (سيلان) وجزيرة سومطرة ، وجزائر الهند الشرقية ثم الصين . وقد وصف كل مارآه وعايه وصفاً دقيقاً ممتعاً، واهتم بصفة خاصة بالتوافق الاجتماعية والاقتصادية .

وعاد ابن بطوطة بعد هذه الرحلة الطويلة الى مكة حيث حج للمرة الرابعة ، ثم واصل سيره عائداً الى بلاده عبر مصر وتونس والجزائر ، فوصل فاس سنة ١٣٤٩ م .

الرحلة الثانية :

اقام ابن بطوطة في المغرب حوالي سنة ، ثم قام رحلته الثانية الى الاندلس سنة ١٣٥٠ م . والمقصود بالأندلس في ذلك الوقت هو مملكة قرطاجنة آخر مملكة اسلامية في اسبانيا . وقد

وصف ابن بطوطة خط سيره من جبل طارق الى مدينة روندا Ronda ، ثم الى بلدة مربلة Marbella ، وسهيل Fuengirola على الساحل الشرقي الاسباني .

وقد وقعت له في بلدة سهيل غارة بحرية معادية كاد يقتل فيها لو لا انه لجا الى برج المدينة .

ثم واصل سيره بحذاء الساحل الشرقي الى مدينة مالقة ، فوصف ما اشتهرت به من فاكهة كالتين والعنب والرمان ، كما وصف الفخار ذا البريق المعدني الذى اشتهرت بصناعته ، ثم خادر مالقة الى العاصمه غرناطة ، وهنالك لم يستطع مقابلة السلطان ابي العجاج يوسف الاول ، لانه كان مريضا ، ولكن والده السلطان بعثت اليه بدنانير ذهبية كرسم للضيافة .

وقد وصف ابن بطوطة مدينة غرناطة كما وصف الزوايا والروابط الصوفية التي كانت منتشرة في الجبال المحيطة بها مثل رابطة العقاب وزاوية بنى الحروق . ولاحظ وجود جالية ايرانية كبيرة (من العجم) في غرناطة ، وهي ظاهرة اجتماعية مهمة . ويشير الوزير ابن الخطيب في كتابه الاخطاء الى انه اجتمع بابن بطوطة فيستان القاضي ابي القاسم بن عاصم بغرناطة ، ويانوا معه ليثنين حدثهم فيها احاديث غريبة عن رحلاته . ثم عاد ابن بطوطة الى فاس سنة ١٣٥١ م .

الرحلة الثالثة :

اقام ابن بطوطة في بلاده عاما واحدا ، ثم استأنف رحلته الثالثة الى بلاد السودان الغربي سنة ١٣٥٣ م . وقد استغرقت هذه الرحلة ثلاثة سنوات عاد بعدها الى فاس ، حيث استقر في حاشية السلطان ابي عنان فارس المريني ، يخبر الناس بما رأه من العجائب والغرائب .

ولقد اشار كل من ابن الخطيب وابن خلدون الى ان بعض الناس كدبوا ابن بطوطة فقال ابن خلدون : « واستغرب به الساعون ، وتناجي الناس بتكليمه ، ولقيت ايماند الوزير المغربي فارس بن وردادر ، ففاوضته في هذا الشأن ، فقال لى الوزير « ايلاك ان تستذكر مثل هذا من احوال الدول بما اثرك لم تره » . وقد علق ابن خلدون على ذلك بقوله : « ان الانسان ينبغي ان يهيم على نفسه فيميز بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ، فما دخل في نطاق الامكان قبله ، وما خرج عنه رفضه » . وواضح من كلام ابن خلدون انه كان يشك في احاديث ابن بطوطة والواقع ان هذا الراحلة الطنجي كان صادقا في اقواله ، مصيبا في احكامه ، وقد اثبتت الحوادث ، وأقوال الراحلة الاوربيين والمؤرخين ، صدق روايته . فوصفه للقدسية ايدمه الحوليات البيزنطية ، ووصفه لصر حينما قال بان المراكب التي كانت تمر في نيلها بين شطري الوادي ، بلغ عددها لاثنين الفا ، وان عدد السقائين على الجمال بلغ اثنتي عشر الفا ، لم يكن مبالغة فيه ، لأن مثل هذه الارقام ذكرها الراحلة الايطالي فريسكو بالدى Frescobaldi الذي زار مصر بعد ابن بطوطة بنحو خمسين سنة . هذا ، ويلاحظ ان ابن بطوطة لم يكتب رحلته بنفسه ،

بل قدمها على شكل مذكرات او مسودات الى سلطان المغرب ابى عنان فارس المرينى الذى ادرك اهميتها وامر كاتبه الاديب الفرناطى ، عبدالله ابى جزى بصياغتها بالشكل الذى هي عليه الان . وقد انتهى ابى جزى من كتابتها فى ثلاثة أشهر فقط .

هذا ، ويلاحظ ايضاً ان ابن بطوطة فى الجزء الخاص بوصف المغرب من رحلته ، قد تغلبت عليه العاطفة الوطنية بحكم كونه مغرياً ، فجعل المغرب في قمة البلاد التي زارها من حيث الرخاء ورخص الأسعار ، وكثيراً ما قارن بين المغرب والبلاد الإسلامية ولا سيما مصر في هذه النواحي الاقتصادية والاجتماعية . ولم ينس أن يضمن كلامه إياتاً شعرية تعبر عن حبه لوطنه مثل قوله :

بلاد بها نيطت على تمائى
وأول أرض مس جلدى ترابها
وقوله ايضاً :

ولي دليل عليه	الغرب احسن ارض
والشمس تسعى اليه	البدر يرقب منه

كذلك افرد ابن بطوطة جزءاً كبيراً من كلامه في مدح سلطان المغرب على أيامه ابى عنان فارس المرينى ، فعدد اعماله العمرانية كبناء المدارس (المستشفيات) في كل بلد ، وبناء المدارس العثمانية في فاس التي امتازت على مدارس المشرق بالاتساع وكثرة المياه .

كذلك يشير ابن بطوطة الى اهتمام السلطان ابى عنان ببناء الاساطيل البحرية وكيف انه كان يذهب بنفسه الى ثوابات جاناته بنواحي مدينة الرباط ، ليشرف بنفسه على قطع الاشجار الخاصة ببناء السفن ، كذلك بلغ اهتمامه بجبل طارق الذى كان تابعاً للمغرب في ذلك الوقت ، ان امر الصناع بعمل هيكل او مجسم مصغر لهذا الجبل بأسواره وابراجه ومخازنه وأبوابه . ووضع هذا المجسم في قصره بالشبور السعيد : وذلك لشدة اهتمامه بهذا الشفر العظيم ، وما كان يومله في اعادة فتح بلاد الاندلس التي سقط معظمها في يد الاسبان .

وتوفى ابن بطوطة سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٨ م) وفديه يزار في طنجة وقيل انه قبر امه . والرحلة نشرها مع ترجمة فرنسية للعالمان دفريرى وسانجويينti Defremery et Sanguinetti في أربع مجلدات . كذلك هناك طبعات عربية جديدة مثل : طبعة الأزهر ، ووادي النيل في القاهرة ، وطبعة سلسلة الروائع اللبنانيّة تحقيق فؤاد فرم البستاني . كذلك ترجمت هذه الرحلة الى معظم لغات العالم .

• • •

(ق) : مؤرخو القرن التاسع الهجري (١٥ م) :

في هذا القرن التاسع الهجري ، حظيت إسبانيا المسيحية بوحدة سياسية شاملة توجت بزواج الملكين الكاثوليكين Los Reyes Católicos ، فرناندو ملك أرجون وآليبا ملكة قشتالة سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٩ م) . وبهذا الزواج اتحدت هاتان الملكتان اللتان كانتا في منازعات وحروب مستمرة . ولا شك أن هذا الاتحاد ، كان معناه انتهاء مملكة غرناطة الإسلامية ، لأن بقاء هذه المملكة الصغيرة ، كان راجعا إلى حد كبير إلى المداء القائم بين هاتين الدولتين ،

وبالفعل كان أول شيء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان ، هو تصفية مملكة غرناطة ، وإزالة الحكم الإسلامي من إسبانيا . وقد اتبعا في ذلك سياسة مزدوجة تقوم على القوة العسكرية من جهة ، وإثارة التفرقة والفتنة الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى .

واستمرت الحروب بين الجانبيين فترّأطوا بهما على العشر سنوات ، تخللتها ثورات وحروب داخلية بين حكام المسلمين من بنى نصر ، مما زاد في ضعف قوتهم .

وأخيراً أتتني الأمر باستسلام آخر ملوك بنى الأحمر ، أبو عبد الله Boabdil واستيلاء الإسبان على غرناطة في ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (يناير ١٤٩٢ م) . والمصادر العربية المعاصرة التي تورّج لهذه المرحلة الختامية تكاد تكون معدومة ، ولكن من حسن الحظ بقيت لدينا قطعة تاريخية فريدة ، مجهولة المؤلف ، تصف أحداث هذه الفترة الأخبار وهي يعنوان :

«نبيلة العصر في أخبار ملوك بن نصر » المؤلف مجهول .

والكتاب يتضمن أحداث تسليم غرناطة ونحو الاندلسيين إلى المغرب . وواضح من أسلوب هذا الكتاب أن مؤلفه - السيد أخفى اسمه - جندي معاصر ، حضر الواقع ، وخاض غمارها ، وراقب الحوادث والانقلابات وما عقبها من أحداث ومقاجع ، وشاهد انهيار تلك الحصون والإبراج التي كان قد اشترك في الدفاع عنها ثم يصف بعد ذلك كيفية نزوح الاندلسيين إلى بلاد المغرب بعد تسليم بلدتهم . (٥٨)

نشر هذا الكتاب الاستاذ الفريد بستانى مع ترجمة إسبانية للاعب كارلوس كيروس (العرائش ١٩٤٠) .

• • •

(ح) المؤرخون المغاربة بعد ضياع الاندلس :

١ - الحسن الوزان أو يوحنا ليون الأفريقي (١٤٨٨ - ١٥٣٢) (٨٩٣ - ٩٢٨ هـ)

مع بداية العصر الحديث اي في القرن السادس عشر الميلادي ، ظهر رحالة مغربي .

(٥٨) راجع مقدمة النشر ص ١٧ .

اسمه العربي هو الحسن الوزان القاسمي الغرناطي ، واسمه الاوروبي هو ليون الافريقي Leon Africanus ولد في غرناطة سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٨ م) ، وبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م ، هاجرت اسرته الى مدينة فاس بالغرب الاقصى ، ومن هناك طاف الحسن الوزان في بلاد المغرب والسودان الغربي ثم ارتحل الى المشرق وزار مصر والشام والمحجور والاناضول والقسطنطينية ، ثم عاد الى مصر ليبحر منها عائدا الى المغرب . وفي الطريق اسره بعض قراصنة النصارى وحملوه الى روما ، وقد موه هدياً الى البابا ليون العاشر . ويبعدوا ان البابا قدر فيه علمه واخلاقه فعطف عليه واعتقه وصرف له معاشًا سخياً . وتحت تأثير هذه المعاملة الطيبة ، امتنق الحسن الوزان الديانة المسيحية وسمى نفسه ليون الافريقي (على اسم البابا) .

وفي روما اشتغل بتدريس اللغة العربية وانقطع للبحث والتاليف .

ومن اهم مؤلفاته كتابه المعروف باسم :

«وصف افريقيا» Description of Africa

وهذا الكتاب يتناول وصف المغرب ، وممالك السودان ، ومصر ، وهي البلاد التي زارها ودرسها عن كثب .

كتب الحسن الوزان هذا الكتاب باللغة الإيطالية ، وربما كان ذلك من واقع مسودات او اصول هريرة ما زالت مفقودة . ولم يلبث هذا الكتاب ان ترجم الى معظم لغات العالم ما عدا العربية للأسف . ترجمه الى الانجليزية جون بوري John Pory سنة ١٦٠٠ م ، ثم اعيد طبعه مع مقدمة وحواشي بواسطة روبرت برولان Robert Brown في ثلاثة اجزاء سنة ١٨٩٢ بلندن . اما الترجمة الفرنسية فقد قام بها مع دراسة قيمة المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (٥٩) . اما الترجمة الاسبانية ، فكانت بواسطة معهد الجزائر فرانكو بطران ١٩٥٢ (صار يسمى بعد الاستقلال معهد مولاي الحسن) .

خاتمة الحسن الوزان غامضة ، وان كان من المعروف انه في آخر حياته عاد الى وطنه وامتنق الاسلام من جديد ، وتوفي سنة ٩٣٨ هـ (١٥٣٢ م) .

٢ - احمد المقرى : (توفي ١٠٤١ هـ = ١٦٣١)

مؤرخ جزائري من مدينة مقرة (بتشدیدالقاف) من اعمال قسنطينة ، طاف ببلاد المغرب ، وعمل خطيباً بجامع القرويين بفاس ، وهو منصب علمي وسياسي كبير في ذلك الوقت ، ثم رحل الى المشرق وطاف بيلاده ايضاً حيث شارك في حياتها العلمية . ومن اهم مؤلفاته التاريخية لذكر له كتابين مهمين : -

Louis Massignon : Le Maroc dans les premières années du XVI siècle,
Tableau géographique d'après Leon l'africain (Algiers 1906)

﴿ نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب : ﴾

وسبب تأليف هذا الكتاب يرجع إلى شدة اعجاب المقرى بشخصية الوزير الفرنانطى لسان الدين بن الخطيب، وكثيراً ما تحدث عنه في دروسه التي القاها بالجامع الأزهر في القاهرة ، والجامع الاموى بدمشق ، والمسجد الأقصى بالقدس ، بالدرجة أن بعض تلاميذه طلبوا منه تأليف كتاب عن ابن الخطيب . وبعد عودته إلى القاهرة ، اختبرت هذه الفكرة في ذهنه ، ففكf على كتابة تاريخ لابن الخطيب يتناول فيه حياته وانتاجه العلمي والادبي من نظم ونشر وتاريخ .

وبعد أن أتم المقرى هذا الكتاب ، رأى أن يمهد له بتاريخ عام للأندلس ، فخرج الكتاب على شكل موسوعة كبيرة عن الأندلس ، نصفها الأول يتضمن التعريف بالأندلس ، بينما النصف الثاني يتناول التعريف بابن الخطيب ، وأطلق على هذه الموسوعة العنوان السالف المذكور : « كتاب نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » .

ويجيب هذا الكتاب أنه غير منظم في سرد معلوماته ، وقد يرجع ذلك إلى أن المقرى فيه بعيداً عن وطنه وعن مكتبه التي تركها بال المغرب على حد قوله . على أن الكتاب يعتبر مصدراً أساسياً لجميع الباحثين في تاريخ الأندلس والمغرب . لهذا اهتم به المؤرخون والمستشرقون ، فنشر دوزي القسم الأول منه الخاص بتاريخ الأندلس ، والحق به فهارس دقيقة . كذلك قام المستشرق الإسباني باسكوال دي جاينجوس - الذي كان سفيراً للبلاد في إنجلترا - بترجمة المعلومات التاريخية التي تضمنها هذا الكتاب إلى الإنجليزية بعد ترجمتها من الإسبانية والتعليق عليها بحواشن مفيدة تحت عنوان:

Pascual de Gayangos : History of the Mohammadan Dynasties in Spain

أى تاريخ الدول الإسلامية في إسبانيا . وذلك في جزأين :

هذا ، وقد نشر كتاب نفع الطيب في مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٨٦٢ في أربعة أجزاء ، ثم أعاد نشره حديثاً الشيخ محيي الدين عبد الحميد في عشرة أجزاء (القاهرة) ١٩٤٥ .

﴿ أما الكتاب الثاني للمقرى فعنوانه : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض : ﴾

والقاضي عياض (ت سنة ٥٥٤ هـ) موضوع هذا الكتاب ، كان قاضياً لمدينة سبتة على عهد المرابطين ، وله شهرة علمية كبيرة ، ومؤلفاته في الأمور الفقهية عديدة مثل كتاب الشفاء وكتاب ترتيب المبارك في معرفة أعلام مذهب مالك .

غير أن المقرى في كتابه أزهار الرياض لم يقتصر كلامه على هذا القاضي السبتي ، بل تناول أحداثاً هامة في الأندلس لم ترد في كتابه الآخر نفع الطيب ، وخصوصاً ما يتعلق منها بمحاكم التفتيش وطرد المسلمين من الأندلس سنة ١٦١٠ م .

والكتاب نُشر قسم منه في ثلاثة أجزاء بعنابة الاستاذين أحمد السقا ، وابراهيم الإبشاري (القاهرة ١٩٣٩) .

٣ - السلاوي الناصري (١٢٥٠ - ١٤٢٤ = ١٨٩٧ - ١٩٣٥)

هو شهاب الدين أبو العباس احمد السلاوي الناصري ، ولد في مدينة سلا بالغرب الاقصى ، وتوفي بها ، ولها عرف بالسلاوي . أما تسميتها بالناصري، فلأنه ينحدر من سلالة الشيخ المتصوف احمد بن ناصر الملوى الجعفري ، مؤسس الزاوية الناصرية بتماجروت في وادي درعة جنوبي المغرب .

ومن الطريق انه طاف بانحاء المغرب ماماذا اجزاء الجنوبية موطن اجداده . ثم عمل موظفا في المخزن أى الحكومة المغربية ، واختص بالشئون المالية والاجباس ، وخدم في الشور المغربية مثل سلا ، والدار البيضاء ، والمديدة .

وقد اتاح له هذا العمل فرصة الاتصال بالاوربيين والاستفادة من علمهم وكتبهم . على ان شهرة السلاوي لم تأت من عمله الحكومي لانه كان موظفا عاديا ، وإنما جاءت من مؤلفاته العلمية التي نالت حظا وافرا من التقدير سواء في داخل المغرب او خارجه . واهم كتاب الفه السلاوي هو تاريخه المعروف باسم :

« الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى »

وهو تاريخ عام للمغرب الاقصى حتى عصر المؤلف اى حتى اواخر القرن التاسع عشر الميلادي طبع هذا الكتاب اول الامر في القاهرة في اربعين اجزاء سنة ١٨٩٤ اى قبل وفاة السلاوي بنحو ثلاث سنوات ، ثم اعيد طبعه حديثا في الدار البيضاء سنة ١٩٥٦ في تسعه اجزاء على النحو التالي :

الجزء الاول : يتناول احداث الفتح العربي للمغرب ويستمر الى نهاية دولة الادارسة .

الجزء الثاني : يشمل تاريخ دولتي المرابطين والموحدين .

الجزءان الثالث والرابع : عن دولة بنى مررين .

الجزءان الخامس والسادس : عن الدولة السعدية .

الثلاثة اجزاء الاخيرة : عن الدولة العلوية حتى بداية عهد السلطان الحسن بن محمد الملوى ١٨٨١م الذي اهدى له السلاوي هذا الكتاب .

ويعتبر السلاوي اول مؤرخ مغربي استعمل المصادر الاوروبية التي ظهرت في عهده ، مثل تاريخ مازاجان (٦٠) الذي كتبه بالبرتغالية لويس البوكرك Louis Albuquerque ومثل كتاب تاريخ المغرب الذي كتبه بالاسبانية مانويل كاستيلانوس Manuel Castellanos واستعمل السلاوي في ذلك بعض المترجمين اليهود المقيمين في المغرب . كذلك يلاحظ انه اعتمد على

(٦٠) مازاجان هو تحريف لكلمة مازيهان الاسم القديم لمدينة الجديدة الحالية جنوب الدار البيضاء على ساحل المحيط الاطلنطي بالمملكة المغربية .

من سبقه من المؤرخين المغاربة ولاسيما ابن خلدون، الا انه كان كثيراً ما يتناول الاحداث بالفقد والتحليل مع ابداء رأيه الخاص في بعض القضايا . فهو مؤرخ عصرى الى حد كبير . وقد ترجم معظم كتاب الاستقصا الى اللغة الفرنسية بواسطة عدد من الكتاب امثال : كولان ، جرول ، فومي (Colin, Graulle, Fumey)

• • •

نانيا - الحوليات الإسبانية التي تأثرت بالمصادر العربية :

هناك شواهد كثيرة تشير الى تأثر الحوليات أو المدونات الإسبانية بمثيلاتها العربية ، قبل انشاء مدرسة الترجمة بطليطلة Toledo (القرن 11م) بوقت طويل .

ولقد بدأت هذه المؤترات عقب الفتح العربي لاسبانيا بوقت قصير في القرن الثاني الهجري ، او الثامن الميلادي . ففي هذا الوقت كانت بداية حركة المقاومة الإسبانية للوجود العربي في إسبانيا وهي المعروفة في الكتب الإسبانية باسم **الريكونكيستا Reconquista** اي حركة الاسترداد ، وقد صاحبتها حركة نقل وترجمة كبرى من الفكر العربي ، ظهرت بعض المصنفات التاريخية من تأليف لفر من المستعمررين الإسبان ، تتضمن بعض الروايات التاريخية التي سمعوها أو نقلوها من المؤرخين العرب .

ومن اهم هذه المصنفات ، الحوليات التالية :-

١ - الحولية البيزنطية العربية لسنة ٧٤١م (La Cronica Bizantina-Arabe de 741)

وهي تاريخ عام يتضمن اخباراً عن بعض ملوك القوط في اسبانيا ، وباطرة بيزنطة ، كما تتناول تاريخ العرب في الشرق ، واخبار فتوحهم في اسبانيا . ولم يخف مؤلف هذه الحولية مكان يشعر به من اعجاب وتقدير للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . مما جعل بعض المؤرخين الحديثين يرجحون انه لم يكن اسبانيا (11) .

و واضح من نصوص هذه الحولية ان كاتبها اعتمد على بعض المصادر البيزنطية والعربية .

٢ - الحولية المستعيرية لسنة ٧٥٤م او تاريخ مجهول المؤلف لمدينة قرطبة :

La Cronica Mozarabe de 754 o Anonimo de Cordoba

وهي تاريخ عام يبدأ ببداية الخليقة ، وينتهي الى حوادث سنة ٧٥٤م ، ويشتمل على تاريخ الروم والعرب ، ثم يخصص قسماً لتاريخ اسبانيا . ويبدو أن المؤلف كان مستعيراً ، وأنه كان من رجال الدين الإسبان ، اذ هو دائب العناء بالتاريخ للحياة الدينية والكتيبة في الاندلس ، وبخاصة في

Sanchez Albornoz : Fuentes de la Historia Hispano-musulmana del siglo VIII p. 32-33 (Mendoza 1942) & Sanchez Alonso : historia de la Historiografia Espanola, tomo I p. 100 (Madrid 1947) (٦١)

مدینتی سرقسطة وطليطلة . ويلاحظ كذلك ان المؤلف كان من أنصار حزب الملك القوطى غيطة *Witiza* ، فهو يخصه بكثير من المديح والتأيد، ويشير الى المعارك التي قاتلت بنه وبين الفرقان العادى له وهو حزب الملك رودريgo .

وتحتفل هذه الحولية عن سابقتها ، بروتها الوطنية الإسبانية ، اذ أنها خلت من الفاظ المديح للرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أنها نظرت الى الفتح العربي على أنه كارثة وطنية داهمة .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف في روح الحوليتين ، فان هناك تشابها كبيرا بينهما في المضمون مما يرجع ان المؤلفين اخدا مادتهما من مصادر عربية وبيزنطية واحدة مع قدر مختلف من التصرف في النقل .

٣ - حولية البلدة : *Lu Cronica Albeldense*

سميت هذا الاسم نسبة الى المكان الذي عر عليها فيه وهو دير البلدة بالقرب من مدينة لو جرونيو *Logronio* في وادي الابرو شمال إسبانيا . وتشتمل هذه الحولية على تاريخ مختصر للملك القوط في إسبانيا ، وتاريخ الملك الإسباني المسيحي الذي قاتل في الشمال ، ومختصر ل التاريخ العرب في إسبانيا والمشرق منذ عصر ابراهيم الخليل عليه السلام . يصل الكتاب بأحداثه الى السنوات المشر الاولى من حكم الملك الفونسو الثالث الملقب بالعظيم *El Magno* سنة ٨٧٦ م .

ويلاحظ في هذه الحولية بهذه ظهور الكلمات الرومانسية *Romances* في النص اللاتيني ، والمقصود باللغة الرومانسية هنا اللاتينية العامية التي تطورت منها اللغة الإسبانية ، ويسمى بها العرب الأعجمية (١٢) .

٤ - الحولية المتقدمة : *La Cronica Profetica*

ذكر مؤلف هذه الحولية أنها كتبت في ١١ ابريل سنة ٨٨٣ م ، وقد سميت بهذا الاسم تحت تأثير الشبوبة التي شاعت في إسبانيا وقتذاك بان الحكم العربي سينتهي بعد قيامه في إسبانيا بعاهة وسبعين أو في سنة ٨٨٣ م ، وهي السنة التي وضع المؤلف فيها هذا الكتاب متارا يزهو بالانتصارات التي احرزها ملك ليون الفونسو الثالث الملقب بالعظيم (٩١٠ - ٨٦٦) .

واضح من اسلوب الكتاب ان المؤلف كان مستعربا من رجال الدين ، ويرجع البعض انه المؤرخ دولشيديو *Dulcidio* صديق الملك الفونسو الثالث ورسوله لدى أمير الاندلس العربي محمد بن عبد الرحمن الثاني الاموي . اذ يبدو من تلام المؤلف انه اعتمد على مصادر عربية اطلع عليها اثناء اقامته في الاندلس وفي مدينة طليطلة بصفة خاصة ، وانه انتقل منها بعد ذلك الى بلاده الفونسو الثالث في ليون حيث ألف كتابه . والكتاب يتضمن الى جانب الاحداث التاريخية ، تاريخا لانساب العرب .

(١٢) راجع : Sanchez Albornoz : *La Cronica de Albelda*, Bulletin Hispanique, Bordeaux 1930, XXXII p. 305-325)

٥ - الحولية القوطية La Cronica Gothorum

كتبت في أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، مؤلفها مستعرب من مدينة طليطلة قبل سقوطها في يد الإسبان سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، وقد بدأها بوصف عام لاسبانيا ، وأتبعه بتاريخ مختصر للرومان والقوط والفتح العربى لاسبانيا وربما سميت بالحولية القوطية ، لأنها تحتوى - ولأول مرة في المصادر الإسبانية - على قصة ابنه يوليان حاكم سبتة ، مع الملك القوطى رذريق الذى اعتمد عليها ، وهى القصة التى وردت في المصادر العربية الاندلسية فقط . وهنالك اجماع على أن مؤلف هذه الحولية اعتمد على مصادر عربية وخاصة تاريخ المؤرخ القرطبي احمد بن محمد الرازى المتوفى في أواسط القرن الرابع الهجرى (٤١٠ م) . وتجدر الإشارة هنا على سبيل الاستطراد أن هذا المؤرخ احمد الرازى كتب عدة مؤلفات تاريخية أهمها :

- * أخبار ملوك الأندلس وفزوائهم وكتباتهم .
- * كتاب أنساب مشاهير أهل الأندلس واعتهدا ابن الإبار عليه كثيرا .
- * كبار الموالي الأندلسية .
- * صفة الأندلس وخططها ومتازل الأعيان بها .

وقد ضاعت هذه المؤلفات كلها ولم يبق منها إلا ترجمة برتغالية واسبانية لقطعة من كتابه الآخر صفة الأندلس . نقلها أول الأمر من العربية إلى البرتغالية ، بأمر من ملك البرتغال ديونيسيو (١٢٧٩ - ١٣٢٥ م) راهب يدعى خبيل بيريث Gil Perez في القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) وكان يساعدهم في الترجمة جماعة من المغاربة يدعى أحدهم المعلم محمد Maese Mohamad . ثم نقلت هذه الترجمة البرتغالية إلى اللغة الإسبانية في نفس القرن تحت عنوان تاريخ الرازى Cronica del moro Rasis ونقاالتها مجهول الاسم . وقد نشر جاينجوس هذه الترجمة الإسبانية سنة ١٨٤٠ م ، وأكمل نشرها فيما بعد رامون منندث بيدال (١٢) في فهرس حوليات المكتبة الملكية بمدريد Catalogo de Cronicas de la Real Biblioteca هذا بالإضافة إلى الترجمة الفرنسية التي قام بها ليغويبر وفنصال عن الترجمة البرتغالية ونشرها في مجلة الأندلس الإسبانية سنة ١٩٥٣ .

وإذا كنا قد ذكرنا أن مؤلف الحولية القوطية قد تأثر بمؤلفات الرازى التاريخية فمن الواضح أنه اعتمد على النص العربي قبل أن يفقد ، لأن كتب حوليته في القرن الحادى عشر الميلادى ، في حين أن تاريخ كل من الترجمتين البرتغالية والإسبانية يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى .

وهكذا نرى من دراسة هذه الحوليات الإسبانية السابقة ، أن الدول الإسبانية المسيحية التي فاتت في شمال إسبانيا ، قد اعتمدت ملذاتها على حركة النقل والترجمة عن الفكر العربي

(١٢) راجع : Ramon Menendez Pidal : Floresta de Leyendas (Madrid 1925 Vol. I. p. 28.

من التراث العربي الاسباني

الاندلسي ولاسيما في مدينة طليطلة قبل ان تسقط في ايديهم اى حينما كانت ثغرا اسلاميا مجاورة لحدودهم .

وفي سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) سقطت طليطلة في يد الفونسو السادس ملك ليون وقشتالة ، غير ان سقوط طليطلة في يد الاسبان لم يفقدها طابعها العربي قرولا طويلا ، اذ اجتمع في بلاط ملوكها المسيحيين نخبة من علماء المسلمين والسيحيين المستعربين واليهود ، الذين عكفوا على ترجمة امهات الكتب العربية الى اللغة اللاتينية . وكانت هذه الكتب اما ترجمات عربية لاصول يونانية وفارسية وهندية ، اواما كانت كتبها من تأليف المسلمين انفسهم تضمنت اضافات جديدة الى الفكر الانساني . وكل النوميين كان جديدا بالنسبة لاوروبا التي كان التعليم فيها قاصرا على الانشيد الكنسية . ولهذا صارت مدرسة المترجمين في طليطلة مركزا ثقافيا كبيرا جذب اليه العلماء والدارسين من مختلف الحاء اوروبا .

ومن اهم المحوليات التي كتبت فيها بذلك الوقت :

٦ - حولية السيلوسية : Cronica Silense

ومؤلفها مستعرب اسباني من طليطلة عاش في القرن الثاني عشر الميلادي ، وكان راهبا من رهبان دير سيلوس Silos ، والى هذا الدير نسبت هذه حولية . ولقد ضمن المؤلف تاريخه بكثير من الروايات والاساطير التي كانت متداولة في الاندلس على أيامه ، مما يدل على انه سمعها او قرأها في اصولها العربية . وقد عنى بابراز ماتر الملك الفونسو السادس ، وبصفة خاصة استيلائه على طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، ولكنه لم يذكر شيئا عن بطولة السيد المبارز او المحارب El Cid Campeador وهو من معاصريه . ويعتقد المؤرخون الاسبان ان مؤلف هذه حولية قد اعتمد اعتمادا كبيرا على كثير من المؤلفات التاريخية العربية الا انهم لم يتمكنوا من تحديد عنوانها .

٧ - حولية الطليطلية او تاريخ الرومان والقوط والعرب Historia Cronica del Toledano

Gothica Arabum, Romanorum

ومؤلف هذه حولية الكبيرة اسقف مدينة طليطلة رودريجو خيمينيث دي رادا Rodriqo Jimenez de Rada احد كبار العلماء الذين اشرفو على الحركة العلمية بمدينة طليطلة ، ولذا يعرف ايضا بالطليطلى El Toledano (١١٧٠ - ١٢٤٧ م) وكان هذا الرجل يتقن عدة لغات من بينها العربية التي ساعدته على الافادة من المصادر العربية ، وكتابة القسم الاسلامي من حوليته بشكل احسن بكثير مما فعل سابقه من المؤرخين الاسبان .

وقد بدأ هذا القسم بالكلام عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتهى فيه عند احداث سنة ١٢٤٣ م واما يلفت النظر ويؤكد رجوعه الى المصادر العربية ، انه استعمل في هذا القسم التاريخ الهجري لا الميلادي ، وكان اكثر اعتماده على تاريخ احمد بن محمد الرازى القرطبي (٦٤) .

(٦٤) راجع .

Sanchez Albornoz : La Cronica del Moro Rasis, Anales de la Universidad de Madrid, 1934, III p. 250.

٨ - التاريخ الأول العام لاسبانيا او المدونة العامة للتاريخ اسبانيا :

Primera Cronica General de Espana

ما ولى عرش اسبانيا الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم او الحكيم El Sabio في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م)، دفع بمدرسة طليطلة الى الامام ، وعمل على حمايتها ورعاية علمائها، وتشجيعهم على الاستمرار في جهودهم العلمية القائمة على الترجمة من العربية ، بل انه شارك بنفسه في وضع الخطط التي يسيرون عليها ، وكثيراً ما كان يستعمل قلمه لتصحيح او تعديل يراه في بعض هذه الاعمال العلمية .

ولم يقتصر اهتمام هذا الملك العالم بمدينة طليطلة كمركز ثقافي ، بل انشأ الى جانبها مركزاً ثقافياً ثانياً في مدينة مرسيية Murcia (شرق اسبانيا) ، ومركز ثالثاً في مدينة اشبيلية Seville (غرب اسبانيا) حيث عكف علماء المسلمين واليسوعيين واليهود على ترجمة الكتب العربية والنقل عنها .

وتحديثنا كتب التاريخ عن عدد كبير من علماء المسلمين الذين كانوا يجيدون اللغة الاسبانية ويناقشون بها علماء المسيحيين في مختلف المسائل الدينية والدنيوية .

ومن اهم الاعمال التاريخية التي انجذبت تحت اشراف الملك الفونسو الحكيم ، ذكر المدونة التاريخية الكبرى السالفة الذكر والمعروفة باسم «التاريخ الأول العام لاسبانيا» . وهذه الحولية التي كتبت باللغة القشتالية ، اعتمدت على عدد كبير من المصادر العربية والبيزنطية واللاتينية ، وعلى جميع المخطوطات الاسبانية السابقة ، ولا سيما حولية الطليطلى السالفة الذكر (١٥) .

ومن المصادر العربية التي اعتمدت عليها حولية الفونسو العالم نذكر «كتاب البيان الواضع في الملم الفادح» ، للمؤرخ البلنسي ابن عبد الله محمد بن خلف الصدفي المعروف بابن علقة المتوفى سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) . وهذا الكتاب مفقود للأسف ، ولكن نقل عنه عدد من المؤرخين اللاحقين امثال ابن عداري وابن الأبار وابن الخطيب .

كذلك اعتمدت هذه الحولية الكبرى على كتاب «الاكتفاء في اخبار الخلفاء» ، لابن مروان عبد الملك الكريديوس الذي عاش في اواخر القرن السادس الهجري (١٢ م) ، وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً فيما عدا القسم الخاص بتاريخ الاندلس الذي قمت بنشره وتحقيقه في صحيفه محمد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦٨ .

والمقارنة تدل بما لا يدع مجالاً للشك على ان هذه الموسوعة الاسبانية التي الفت في القرن الثالث عشر الميلادي (٧ هـ) ، قد نقلت اخباراً وروايات كثيرة عن هذين الكتابين - كتاب ابن علقة، وكتاب ابن الكريديوس - وبصفة خاصة الاخبار المتصلة بسقوط بلنسية في يد الفارس الاسباني المفامر ،

Cesar Dubler : Fuentes arabes y bizantinas en la Primera Cronica General, (١٤)
(Vox Romanica XII 1951)

السيد القمبيطور El Campeador اي المبارز في الفرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) وهي معلومات جديدة لم ترد في المصادر الأخرى^(٦٦) .

ولم تقتصر موسوعة الفونسو العاشر (العالم) على الاحداث التاريخية ، بل شملت ايضا عددا من الملحم الشعبية المتصلة بتاريخ اسبانيا ، ومن اهمها :

ملحمة ابناء لارا السبعة Los Siete Infantes de Lara التي الفت في الفرن الحادي عشر الميلادي (٥ هـ) ، وملحمة زايدة المساجحة La Mora Zaida التي الفت في القرن الثاني عشر الميلادي (٦١ هـ) ، وملحمة السيد القمبيطور El Poema del Cid Campeador التي الفت ايضا في القرن الثاني عشر الميلادي (٦٢ هـ) .

وكانت هذه الملحم في الاصل تردد على لسان الناس على شكل اشعار باللغة الرومانسية او اللاتينية العامية (الاعجمية او المجمحة) ثم جاء الملك الفونسو العاشر فدونها في حولته في قالب نثرى باللغة القشتالية (الاسبانية) وخضعت بذلك للكثير من التهذيب حتى القرن الخامس عشر الميلادي (٦٣) .

ولقد لاحظ المستشرق الاسباني ريبيرا Ribera ان هذه الملحم الشعبية تتپن بالعناصر العربية ، وأن احداثها وإن كان بعضها يتسم بطبع قصصي ، إلا أنها تتصل اتصالا وثيقا بحياة المسلمين في الاندلس :

ففي ملحمة ابناء لارا السبعة ، نجد بطلها اسمه مدرع ، وهو اسم عربي ، ولد من اب مسيحي لارا ، وأم مسلمة ترجم القصة انها اخت المنصور بن أبي عامر . وفي هذه الملحمة يرثى لارا ابناء السبعة الذين قتلهم المنصور . ويلاحظ في اختيار عدد سبعة بالذات مدى لما في التراث الاسلامي من ايسار لهذا العدد^(٦٤) .

أما ملحمة زايدة المساجحة ، فترى ان زايداً هلاك كانت ابنة المعتمد بن جراد ملك اشبيلية وانه اهدأها للملك الفونسو السادس ملك قشتالة وليون الذي تزوجها وانجب منها ابنه الوحيد وولي عهده سانشو Sancho (شانجة) الذي قتل في حياة والده في معركة مع المرابطين ، وهي معركة اقليش Ucles شرق طليطلة سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨م) ، غير أن المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال - معتمدا على نص اورده ابن عماري في البيان المغرب - اثبت ان زايداً المساجحة كانت في الحقيقة كنة

(٦٦) راجع (حسين مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقته بال المسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول سنة ١٩٥٠) وكذلك :

(Menendez Pidal : La Espana del Cid, II p. 892)

(٦٧) ظهرت بعد حولية الفونسو العاشر ، حوليات أخرى من نوعها وإن اختلفت عنها ايجازاً واطناباً ، وأهمها حولية الثانية التي كتبت في القرن الرابع عشر يعنوان (La Segunda Cronica General 1344)

(٦٨) راجع (دكتور لطفى عبد الباسط : الاسلام فى اسبانيا ص ١٤٥) .

للمعتمد اي زوجة ابنه المامون حاكم قرطبة ، وانها هربت الى طليطلة بعد مقتل زوجها على يد المرابطين حينما دخلوا مدينة قرطبة ، فتزوجها الفونسو السادس ، وماتت بعد ان انجبت منه الامير سائشو (١١) .

اما ملحمة السيد المبارز (القميطر) ، فانه واضح من اسمها والفاظها واحداثها انها كتب على نمط السير العربية ، فهي تصور السيد El Cid وقد خرج من قريته فيقار Vivar يضرب في الارض ليبني له مجدًا وشهرة ، فاتصل بالملك المستعين بن هود ملك سرقسطة ، ودخل في خدمته ، وحارب أعداءه ، وصار يتشبه بقادة العرب المشهورين ، وتزوجه اخبار المهلب بن ابي صفرة ، كما كان يرجر الطير ويتفاعل به ويتشاءم على عادة العرب وكان جنوده ينادونه على عادة الملوك بعبارة Mio Cid وهي ترجمة الكلمة : يا سيدى ، (٧٠) من هنا لصق به اسم السيد مع ان اسمه الاصلی رودریجو دیاٹ Rodrigo Diaz El Cid

وبعد موت الملك المستعين ، اتقلب هذا الفارس المقاوم على المسلمين ، واستولى على مدينة بلنسية التي استردها الرباطيون بعد وفاته سنة ١٠٩٩ م .

واللحمة كتبها شاعر مستعرب من مدينة سالم Medinaceli في شمال إسبانيا . وأحد أحداثها التاريخية صحيحة إلى حد كبير ، لأنها دونت بعد فترة قصيرة من وقوعها ، ولهذا تعتبر مصدرا تاريخيا هاما ل تلك الفترة المتعلقة بعصر الطوائف والمرابطين .

التاريخ العام | Estoria Universal أو Estoria General

هذا الكتاب ينسب كذلك إلى الملك الفونسو العالم ويتضمن تاريخاً للعالم منذ بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء والشعوب القديمة . ويلاحظ أنه استمد معلوماته عن تاريخ الأفريقي والرومان والهنود والمصريين القدماء ، من المؤرخين العرب ، بل لقد نص صراحة على أن ما ذكره عن مصر منقول عن كتاب المسالك والمالك للجغرافي العربي أبي عبيد البكري (القرن الخامس المجري) (٢١) .

وهكذا ، نرى مما تقسم ان الحوليات التاريخية للملك الفونسو العالم ، هي مثل راتع ذلك الور الذي قامته اسبانيا في مرج حضارتي الشرق والغرب .

(٦٩) ليلى بروفسريل : الاسلام في المغرب والأندلس ص ١٥١ - ١٦٤ ، ترجمة د. عبد العزيز سالم ، صلاح الدين حلمي ، د. لطفي عبد الدايم .

(٧٠) كلمة سيد وسيدي وسادة وأسياد كانت تطلق في المغرب والأندلس على الأمراء والاشراف ، وما زالت كلمة سيدنا تطلق على ملوك المغرب .

(۷۱) راجع :